د. بول غليونجي

طب وسحر

تقديم ومراجعة

د. فوزي فؤاد

الكتاب: طب وسحر
الكاتب: د. بول غليونجي
تقديم ومراجعة : د. فوزي فؤاد
الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية (ناشرون)
٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة
جمهورية مصر العربية
هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٦ ـ ٣٥٨٦٧٥٧٥
فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣
http://www.apatop.com E-mail: news@apatop.com

دار الكتب المصرية
فهرسة إثناء النشر

غليونجي ، د. بول
طب وسحر / د. بول غليونجي
– الجيزة – وكالة الصحافة العربية.
٩٩ ص، ١٨ سم.
الترقيم الدولى: ٢ – ٦٢٧ – ٤٤٦– ٩٧٧– ٩٧٨
أ – العنوان رقم الإيداع : ٢٥٧٢١ / ٢٠١٨

طب وسحر

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة :

تمثل فصول هذا الكتاب المهم، سلسلة حية من رحلات الإبحار في عمق التاريخ العلمي والطبي في أغوار الحضارة المصرية القديمة التي وهبت للعالم مفاتيح كنوزها، كما ضنت بالكثير – بحسب تعبير المؤلف د.بول غليونغي – فهو يقرن بين السحر والطب في بدايات اضطلاعهما بالبحث عن الداء والدواء معا من خلال تاريخ للسحر وارتباطه بالوعي الجمعي للشعوب والبلاد التي كانت تتخبط في غياهب التاريخ،

كي تصنع وعيا مغايرا ومتابعات بحثية حثيثة ربما انطلقت من الوعي الشعبي البدائي، ومن منطلق السحر الذي يربط المؤلف/ الباحث بينه وبين الوعي الإنساني، مؤصلا لفكرته قائلا:

"تلك الفكرة، وهي أن الإنسان يملك سلطاناً على القوى الخارجية يعرف كيف يديرها على نحوٍ ما، هي أساس السحر. ولقد كانت مرحلته التالية في تطوير تفكيره وفي محاولته تفسير مظاهر الكون، أن عزا إلى كل الكائنات روحا خاصة وأسند إليها إرادة ذاتية وتصور أنها دائمة التدخل في حياته اليومية.. ثم ألهها كلها كما ألَّه كل ما كان يجهله ويخشاه، وهذا ما يسمى الروحانية"

هذا التراتب القيمي الذي تثيره الدراسة المتفحصة المبحرة، ما يوجه الأمر فيما بعد إلى الأسس النفسية للإيمان بالسحر والتي يوردها البحث في نقاط ثلاث، ثم يعرج بها على أركان العمل السحري الثلاثة: التعاويذ، والطقوس، وشخصية الساحر. مما يطرح سؤالا مفصليا هاما، وهو: هل للسحر قيمة

اجتماعية؟.. فالكاتب يورد قوله: "نحن لا نستغرب استمرار الإيمان بأثر السحر وبقاء بعض مراسمه، على الرغم من ازدهار حضارتنا المبنية على نزعة تجريبية تعقلية دقيقة. ولهذا البقاء عدة أسباب مهمة تستمد غذاءها من جذور متغلغلة في صميم قلوبنا في نواح منها منعزلة تماما عن تلك التي يتحكم فيها العقل والمنطق. وهذا العزل هو سبب التناقض الظاهر في وجود ضربين مختلفين من التفكير يسيران جنباً إلى جنب في العصر نفسه، بل في الذهن نفسه"

ثم الولوج إلى الطب اللاهوتي الذي يعتمد على رجال الدين وطقوسهم ووصفاتهم وسلطتهم الأرضية التي وهبتها لهم سلطة الدين/ وما إلى ذلك من تتابع مراحل البحث العلمي الدقيق وإن كان متناثرا من خلال لفافات العلماء والباحثين الذين حالوا بين العلم واستفحال الجهل والتخبط لتكون لفافاتهم نورا يضئ دروب الحيرة بعد المزيد والمزيد من التخبط..

ومن هنا تأتي أهمية هذا الكتاب الذي يربط بين السحر والدين والعلم والمجتمع، في فصوله المتوالية التي تغوص فيما بين العلم والصدفة والعادة الاجتماعية والموروث الديني والميثولوجي، مع ما يتناثر من بعض الملامح الأنثروبولوجية التي تؤرخ لعادات وصفات بعض الشعوب، وخاصة في مصر.

د. فوزي فؤاد

مقدمة المؤلف:

قد نخطئ إذا ظننا أن الإيمان بالسحر – وما إليه من الأشياء التي ينكرها العقل ويعدها من الخرافات – نبت في ذهن الإنسان نتيجة للصدفة أو الارتجال، ويكفي أن هذه الظاهرات سايرته آلافاً من السنين وأنها لا تزال تسيطر على نواح كثيرة من سلوكه اليومي،

وهذا دليل على أنها استمدت أصولها من إملاء قلوب السلف استجابة لحاجتهم الاضطرارية إلى المعرفة، أو تخيل المعرفة، ليتغلبوا على القلق الأزلي الذي كان ينتابهم في خضم الكون ومخاطره. وقد اختلفت طبيعة تلك الاستجابة باختلاف صور العالم التي صورتها لهم معارفهم وأوهامهم في مختلف الحقب والبيئات.

ولعل الإنسان أول ما وعى لم يميز بين نفسه ومحيطه، فخيل إليه أنه مجرد عضو من جسم عالمي فيه كل محتويات الكون، وهو – كالجسم الآدمي – متضامن الأعضاء يعين بعضها بعضاً، حتى إنه يمكن، بحكم تضامنه الكامل مع العالم، تحريكه وفق إرادته إذا ما عرف سر تلك الروابط .

تلك الفكرة، وهي أن الإنسان يملك سلطاناً على القوى الخارجية يعرف كيف يديرها على نحوٍ ما، هي أساس السحر.

ولقد كانت مرحلته التالية في تطوير تفكيره وفي محاولته تفسير مظاهر الكون، أن عزا إلى كل الكائنات روحا خاصة وأسند إليها إرادة ذاتية وتصور أنها دائمة التدخل في حياته اليومية.. ثم ألهها كلها كما ألَّه كل ما كان يجهله ويخشاه، وهذا ما يسمى الروحانية.**(animism)**

وخطا بعد ذلك خطوة أخرى، عندما اختار إلها من بين مجموعة الكائنات المؤلهة، ليكون لأسرته حامياً ورمزاً وعلما ورباً في وقت واحد، وعنده أرومة سلالته. وهكذا نشأت الديانات التوتمية **(totemism)** التي اتخذت حيوانا إلها للقبيلة، فحرَّمت أكله، أو نهرًا فحظرت الاستحمام فيه، أو شجراً أو كهفا أو جبلا أو بركانا، فنهت عن الاقتراب منه اللهم إلا إذا عرف من يعتدي على حرمة هذا المحرم وسائل إبعاد اللعنة، وفي تلك الحال كان الحرام يتحول إلى قداسة واللعنة إلى بركة، وتحل روح الإله فيه، فيضحي آكل لحم هذا الحيوان، أو المستحم في مياه ذلك النهر، مستوعبا إياه، مماثلا له، بل يصبح هو الإله، ولذا فإن معرفة تلك الطرائق كانت تعد – بطبيعة الحال – من أخطر الأسرار، ولا سبيل إليها لغير الكهنة والسحرة وأشراف القبيلة.

وفي مصر سلك الدين تلك الطريق، ويعتقد علماء أصول الإنسان أن الأصل في تسمية كل مقاطعة باسم حيوان، تلك العادة التي استمر الأخذ بها طوال تاريخ مصر القديمة، يرجع إلى تأليه القبائل التي كانت تحتمي هذا الحيوان أو ذاك؛ فكانت أسيوط تحتمي الذئب، والمنيا تحتمي الأرنب....الخ.

وعندما تكتلت القبائل المجاورة أو المتجانسة، تحت ضغط مقتضيات السياسة أو المنفعة، ونشأت منها إمارات ودول، رأى أصحاب السلطان أن الحكمة تقتضي باحتفاظ كل قبيلة بآلهتها؛ وأن تعترف الدولة بالآلهة المحلية، بعد تنصيب إله القبيلة الحاكمة إلهاً فوق الآلهة، ورفعه إلى مستوى إله الكون. وكان لهذا الإجراء سبب سياسي مهم، هو أن الملك كان يعتبر حفيد الإله وممثله على الأرض، فكان يتحتم أن يكون إلهه رب الأرباب الآخر.

وظهرت فيما بعد بين الكهنة النابهين نزعة فلسفية كونية عزت إلى كل إله معنى كونيا، وجعلت من الإله الأول خالقاً للكون، ومن الآلهة الأخرى أتباعاً، أو رعايا له، أو رموزًا لبعض صفاته، أو ممثلين لبعض أشكاله، وأدمجتهم في نظرية عامة للكون. وأصبحت الأساطير الفردية في أساطير عامة، تتحدث عن علاقات الآلهة بعضهم ببعض، ومنازعتهم على السلطان، في شكل وقائع تاريخية، زعمت أنها جرت في عصر سحيق، حكم الآلهة في غضونه البشر علي الأرض. ولا شك في أن تلك الأساطير بنيت على أسس تاريخية تقليدية، وإن صعب أحيانا تخليصها مما حاكه حولها – على مر الأجيال – خيال الشعب الخصب، وتأملات الكهنة الفلسفية.

الأسس النفسية للإيمان بالسحر:

أسهبنا بعض الإسهاب في تتبع مراحل التفكير البشري في الكون، لأن السحر في كل عصر بنى عليه، واصطبغ بصبغته، وابتكر أساليبه تبعا

لذلك، وأملى قواعد الحياة الاجتماعية وفقا لمقتضيات هذا التفكير، والآن، يمكن حصر مقومات السحر في ثلاث، هي:

أولا: الاعتقاد بوجود قوة خفية – لا شخصية ولا مادية – تنظم العالم، وأن تلك القوة التي سميت أحياناً "مانا" يمكن للساحر أن يأسرها في جسده، ثم يحلها بدوره في جسد غيره؛ وأن يسخرها بصفة عامة لأغراضه عن طريق وسائل معينة.

ثانيًا: المنطق الكاذب الذي يستقرئ من القياس السطحي، المثل من المثل، والذي يرى روابط بين الشيء وشبيهه، وبين الشيء واسمه، كأن يعتقد أن أي عمل أتى بنتيجة في الماضي سوف يأتي حتما بمثلها في المستقبل، وأن اسم الإنسان يحدد مصيره، وأن العقار إذا شابه عضواً فإنه يشفي آلام هذا العضو، وأن خواص الأرقام والأشكال الهندسية، تكسبها صفات ملائمة. ومن أمثلة ذلك التفكير، الاعتقاد بأن صب الماء على الأرض، يسقط المطر. وأن إلحاق أي أذى بنموذج يسبب مثله في الأصل، وأن يوما من الأسبوع وقعت فيه كارثة يظل شؤما في المستقبل... الخ.

ولا تزال كثرتنا، ولا يزال من المثقفين أنفسهم، من يؤمن بخواص رقمي ١٣ أو ٧، أو يتشاءم من السفر يوم الجمعة، أولا يتحدث عن مرض إلا مسبوقاً بعبارة "عدوك" أو "برة وبعيد" بل يتحاشى التلفظ بأسماء الأمراض القاضية كالسرطان، ويكني عنها "بالمرض الملعون" أو بكناية أخرى، ولا يقدم على عمل إلا تضرع قبله بالدعوات. ولست أقول إن الابتهال إلى الله تعالى ضرب من ضروب السحر، ولكني أعني أن الباعث النفسي الذي

يملي هذا التضرع إلى إنسان القرن العشرين هو الشعور القهري نفسه الذي كان يوعز بتلاوة التعاويذ في العصور النائية، إذ أن الإيمان بالأصنام أو بالأرواح كان في ذلك الوقت، في مثل قوة إيماننا اليوم بالله ورسله، فضلا عن أن حاجة الإنسان إلى سند علوي هي من الظواهر الباقية.

ثالثا: عدم إدراك الإنسان لفكرة الموت ردحا طويلا من الزمن –كما هي الحال حتى وقتنا هذا – لدى كثير من القبائل، وعدم تمييزه بين الموت والحياة، وتخيله أنه نوم طويل يعيش المتوفى في أثنائه عيشة الأحياء. ويقوم بأعماله المعتادة حتى بواجباته الزوجية (كما قام بها أوزوريس بعد موته فأنجب من زوجته إيزيس ابنها حورس). وأنه يستيقظ أحيانا فيزور الأحياء طيفاً في أثناء نومهم، وشبحاً أو رؤيا في أثناء اليقظة، ويطالبهم بحقوقه وأملاكه. ومن هنا نشأ الإيمان بالأحلام والأشباح، وتقديم الأطعمة والملابس، بل الخدم والزوجات للمتوفين، وعمليات السحر لإعادة الحياة إلى ما كان يحيط بهم في كهوفهم، لتهيئة أسباب الراحة والترف لهم، بغية استرضائهم والحيد بهم عن فكرة العودة، بل يذهب بعض إلى القول بأن ركام القبور (**Tumulus**) الذي تحول فيما بعد إلى "الشاهد" كان الغرض من وضعه على القبور في أول الأمر زيادة الثقل على الميت للحيلولة بينه وبين مغادرة قبره.

د.بول غليونونجي

أركان العمل السحري الثلاثة

يعتمد العمل السحري على ثلاثة أركان هي: التعاويذ، والطقوس، وشخصية الساحر.

١ـ التعويذة:

هي الصيغة اللفظية التي يتلوها شادن السحر عند القيام بخدمته. وكيفما كان شأنها لدى بدء استعمالها فإنها – منذ عهد التاريخ بها – أنصفت دائما بالجود وعدم القابلية للتحول، وقد عدوها أهم أركان السحر ومركز القوة الفعالة فيه؛ وتلك القوة منحصرة في صيغتها اللفظية، تنطلق معها من فم المتكلم غير مبالية بشخصيته ولا بالمعوذ له، سالكة طريقاً ذاتية لا عودة منها حتى بإرادة قائلها، وهاتان الخاصتان – أي عدم ارتباط التعويذة بالأشخاص، أو بنية القائل لها واستحالة تغيير خط سيرها إذا ما انطلقت – جليتان: الأولى في رواية يعقوب، الذي بارك ابنه الأصغر إسحق وهو يتوهم مباركة بكره، ولم يسعه بعد ذلك العدول عنها، والثانية في نبوءة أشيعا (٥٥: ١١) "…. كلمتي التي تخرج من فمي لا ترجع إليَّ فارغة بل تعمل ما سررت به وتبتهج فيما أرسلتها له."

والغالب أن إسناد قوة ذاتية للألفاظ نشأ عندما بدأ الإنسان يتكلم، ففطن إلى قوة الأصوات الجديدة وقيمة نغمة النطق، وهابها في غيره، مثال

ذلك أن لعنة المجهول لا تزال مرهوبة، وأننا مازلنا نغتبط بدعائه لنا. وقديماً كان الملوك يهابون الشعراء، وخاصة من برع منهم في الهجاء وثلم العرض.

وقد عم الاعتقاد – لدى القدماء – بأن الكلمة لها حياة خاصة، والكلمة التي تصور المدلول أصبحت بالقياس في الفكر البدائي هي المدلول ذاته، فترى السومريين يضفون عليها شخصية معنوية ويسيرة بين الذات والصفة. ونرى البابليين يقولون إنه لا وجود لغير مسمى، ويعبرون عن حدث حصل قبل خلق السماء والأرض بأنه حدث والأرض والسماء لم يسميا بعد. وبالتالي فإن معرفة اسم الشخص تعد امتلاكا له وتكسب سلطاناً عليه (إني أعرف اسمك... ألست أعرف اسمك؟) ولذا فقد كان اسم فرعون يُكتم ولا يُذكر في المتون إلا ألقابه، بل اسم الله تعالى كان محرماً على اليهود ذكره أو معرفته، وقد جاء في "العهد القديم" إن الله تعالى أخفى اسمه عن إبراهيم وإسحق ويعقوب ولم يذكره إلا لموسى: "وأنا ظهرت لإبراهيم وإسحق ويعقوب بأني الإله القادر على كل شيء، وأما باسمى (يهوه) فلم أعرف عندهم (سفر الخروج: ٦،٣).

ومن مظاهر قوة الاسم أن ذكره كان – لدى قدماء المصريين – يضمن الحياة، وترديده يعيدها. فقد ورد في رسالة شرييتي السادسة "إن اسماً يذكر على لسان بشر مفيد في القبر، إن الاسم هو الذي يحيي، وإعادة أسماء الموتى على ألسن الأحياء يضمن لهم استمرار الحياة."

وقد تأثرت فلسفة أفلاطون بمثل هذه النظرة فأعارت الكلمة (Logos)أهمية قصوى انعكست في مستهل رسالة يوحنا: "في البدء

كانت الكلمة، والكلمة كانت عند الله، وكانت الكلمة الله" كما أن اللغة استعارت هذه النظرة في كثير من الأحوال، يسهل علينا إذا أن تتفهم كيف أسندت إلى كلمة الإله وإلى اسمه هما إياه، وأن من يتكلم باسم الإله يصبح هو الإله.

هذا هو السر الذي جعل لمنطوق التعاويذ والصلوات قيمة تعلو مدلولها، والذي أوجب الالتزام بشكلها وبطريقة ترتيلها الموروثين دون أي انحراف، إذ أن أقل تعديل فيهما كان يغيِّر من طبيعتها ويفقدها فاعليتها، بل كان يودي – تبعا لعقائد بعض القبائل – بحياة من أخطأ إلقاءها، ولذا فإن منطوق التعاويذ لم يتغير على مر القرون، بل أن بعضها في مصر كان ما يزال يلقى بلغة أجنبية (في بردي لندن مثلا) لأنها كانت دخيلة، أو لأنها كانت تستخدم ضد أرواح أجنبية. والسبب نفسة فإنها – عموماً – احتفظت بتراكيب لفظية عتيقة وبألفاظ مهجورة؛ وذلك القدم في التركيب، والغرابة في التعبير، مع السجع والتوقيع يكسوان التعاويذ ثوبا من الشاعرية والغموض يزيد في روعتها وفي قوة إثارتها.

وكان مدلول التعويذة يشير دائما إلى الغاية المطلوبة، إما بالتشبيه أو بالاستعارة، أو بتوافق الأصوات أو بسرد حوادث مماثلة من تواريخ الآلهة، وكثيرا ما كانت تخضع تلاوتها لتقاليد مستمدة من خواص الأرقام السحرية (٣، ٤، ٧) أو كانت تقرن بالتسبيح على العقد المربوطة علي الحبال أو الأقمشة، أو باستعمال النبيذ أو الزيوت أو الماء المقدس، أو بطقوس أخرى.

٢ ـ حركات السحر:

هي حركات معينة يقوم بها الساحر أو الكاهن في أثناء عمله، وهي عادة تصحب تلاوة التعاويذ وتعززها، وإن كانت في بعض الأحيان تشكل الركن الأساسي في السحر، وهي مبنية على القياس، أي على العقيدة بأن قوة الساحر أو "المانا" تحول الشبه إلى حقيقة. وهي منوعة، فإما أن تستخدم الحركة وسيلة للتعويذة لتنقلها إلى المعوذ له، وإما أن تقوم بلون من التمثيل يتناول الأمر المطلوب لضمان حصوله فعلاً، كأن يقلد الساحر حركة الماء المتموجة بيده، أو ينفخ ليرمز عن الهواء، أو يمثل قصة من تاريخ الآلهة تتصل بموضوع العمل، أو معركة مع القوى الشريرة تنتهي بقهرها... الخ.

وكانوا يستعينون ببعض المواد في أثناء هذا الدور، كأن يصب الماء لإسقاط المطر، أو تحرق الصور لإلحاق الأذى بأصحابها. وكانت تلك المواد تختار لخواصها الطبيعية، أو لفوائد مزعومة استنتجت بالقياس الرمزي من صفاتها أو أصولها أو شكلها.

ومن تلك المواد عقاقير قوية تحدث انفعالات في نفس من يستعملها كالوسوسة والتخيلات البصرية، وتهيجات وتغيرات في الشخصية تشبه الهستيريا، يؤولها المشاهدون بأنها نتيجة لحلول القوى أو الأرواح بالساحر، وكان تناول تلك المواد محرما في كثير من الأحيان على الجمهور، بل كانت معرفتها وطرق تحضيرها تحاط بالسرية التامة.

ولارتباط حركات السحر بفاعليتها، وبالعقيدة التي نشأت بأن الأمانة في إجرائها هي العامل المقيد للقوى التي يبتغي تسخيرها، أحبطت تلك الإجراءات بالدقة والجمود اللذين كانا يحددان كيفية تلاوة التعاويذ.

٣ـ شخصية الساحر:

ومع أن قوة السحر كانت في متناول كل من عرف أساليبه، وأن فاعليته كانت مبنية على صورته التشكلية فقط. فإنه كان يعطي أهمية كبيرة لشخصية القائمين به، وذلك نظراً لخطورة القوى التي كان يسيطر عليها، والتي كانت تنصبه سلطانا على السلطان، ولذا فإن اختياره كان يحتاج إلى تريث، وكان يخضع لقواعد دقيقة، فكان اختيار المرشح منذ طفولته علي أساس أن يكون من سلالة الساحر، أو أن تقترن أفلاك مناسبة ساعة ميلاده، أو أن يحمل بعض الشارات على جسمه، أو تكون أعجوبة قد وقعت له في حياته، أو أن يكون موضوع حلم... الخ. ولا يزال رهبان التبت يأخذون بمثل هذه الاعتبارات في انتخاب أئمتهم.

علي أن يكون المرشح كان يربى تربية خاصة، معزولا عن بقية القبيلة، محاطا بحواجز من المحرمات التي تتناول طعامه وهندامه وعلاقاته الجنسية، ومن الالتزامات التي كانت في بعض الحضارات تصل إلى حد تحريم كشف وجهه وإلزامه ارتداء قناع. وقد كان عقاب مخالفة الفروض صارماً يودي بقوى الساحر الروحية وأحيانا بحياته.

وليس ثمة شك في أن تلك العزلة القاسية كان ينفرد بها الساحر، وتلك الفروض الجبارة التي كان يدفعها ثمناً لما وهب به من مقدرة، كانت

تقوي ملكاته، وتلهب حواسه؛ وتزيد في عقيدته العميقة بأنه امتاز عن إخوته، وتدعم إيمان هؤلاء بأن الآلهة اختصته بهبات فريدة.

ولحالة الساحر النفسية وزن يعدل حالته الجسمية، فقد كان يمتاز بحساسية مرهفة تقرب من الهستيريا.. ولما لم تكن التعويذة في أول أمرها – حسب اعتقاد البعض – إلا صمام أمن للرغبة الشديدة الكامنة في نفس المتلفظ بها، تخيل له تحقيق رغبته، وأن الحركة السحرية لم يكن أساسها إلا إيهام النفس بحصول الحدث المرغوب عن طريق القيام بمثله، فإن العمل السحري اتصف بالعنف في اللفظ والفعل، وكان يشعر من يأتي به أنه تحرر من قوة طاغية، بينما ما يزال من حوله يرضخ لها، كما يتحرر (المريوح) في الزار وقتيا من الوسواس المسيطر عيله والذي يخاله من عمل العفاريت.

ولذا فقد كان الساحر – في أثناء عملياته – يشد أعصابه بالإيحاء والعقاقير حتي تصل إلى درجة من الهياج والتوتر، فتصدر عنه حركات زائفة وألفاظ عنيفة قد لا يكون لها معنى، ويمثل دوره تمثيلا جائرا وحشيا، كما يمثله اليوم (الكودية) ورواد الزار الملبوسون (والمريوحون) ومن إليهم.

هل للسحر قيمة اجتماعية؟

نحن لا نستغرب استمرار الإيمان بأثر السحر وبقاء بعض مراسمه، على الرغم من ازدهار حضارتنا المبنية على نزعة تجريبية تعقلية دقيقة. ولهذا البقاء عدة أسباب مهمة تستمد غذاءها من جذور متغلغلة في صميم قلوبنا في نواح منها منعزلة تماما عن تلك التي يتحكم فيها العقل والمنطق.

وهذا العزل هو سبب التناقض الظاهر في وجود ضربين مختلفين من التفكير يسيران جنباً إلى جنب في العصر نفسه، بل في الذهن نفسه. ذلك أن الإنسان واجه علي مر التاريخ نوعين مختلفين من الظروف، أحدهما قابل للتكهن والاستقرار، كالأجواء ومواسم الزراعة والفيضان وتأثير أنواع الطعام والشراب وكل العوامل الخارجية كجروح السيوف والرماح والفؤوس، وثانيهما لم يَرَ له سبباً بادئ ذي بدء – كالرعد والقحط والأوبئة والسكتة ونوبات الصرع والزلازل – فلم يسعه إخضاعها لقانون، وافترض لها أسبابا خفية؛ فواجه النوع الأول بالوسائل التي أملتها عليه خبرته واستنتجها عقله المنطقي، ثم أخضع تلك الوسائل إلي التصحيح بالملاحظة والتجربة، وأضاف إليها الملاحظات على مر الزمن، وزادها دقة في الوصف وتعمقاً في التحليل؛ أما الثانية فظلت عالما مغلقا مبنياً على الخبرة التصوفية لا على البرهان التجريبي أو المنطقي وعالجها بما كانت توحيه إليه عقائده

وأحاسيسه، فتقدمت أولى الوسيلتين وكونت العلم، بينما تجمدت الثانية وأصبحت ما نسميه بالسحر.

وقد ساعدت على رسوخ العقيدة بالسحر أسباب أخرى لا تقل أهمية عن الأولى، وهي تتصل بشخصية الساحر وبطبيعة الإنسان، وبالقواعد التي كان يجنيها المجتمع البدائي منه.

أما الساحر فكان يمتاز دائما بقسط كبير من الحذق الاجتماعي والدهاء السياسي والمهارة في انتهاز الفرص للقيام بأعماله، كأن يسند فترة القحط إلى غضب الآلهة، ويفرض ما يفرضه على الشعب لإرضائها، ثم لا يقوم بالطقوس التي يزعم إسقاط المطر بها إلا عندما يجد أن حالة الجو تنبئ به.

وفيما يخص طبيعة الإنسان فإنها تتوق دائما إلى العجائب، وتحب التوغل فيما وراء الطبيعة، وتؤثر عند النظر في قضية ما أن تأخذ بعوامل روحانية مغفلة الأسباب المادية، وتتمسك بحالات فردية أتى السحر فيها بنتيجة مردها إلى الصدفة، وتنسى آلاف الحالات التي مني فيها بإخفاق، هذا بالإضافة إلى حاجة الإنسان الدائمة إلى العون من فوق، والإيمان بتوفر هذا العون هو أساس الأديان، كما أن الشك فيه أدى إلى فلسفة اليأس والتشاؤم التي تجمعت أخيراً في المدرسة الوجودية.

وهذا الإيمان بالسحر أكسبه قوة اجتماعية قصوى، إذ أن المؤمن به يعتقد أنه يمكنه، إما بنفسه أو بالالتجاء إلي وسيط – هو الساحر أو

"الشيخة" "أو الكودية" – فرض إرادته على تلك القوى الخفية التي تحوم حوله، المر الذي من شأنه إزالة القلق الكوني وتحقيق اتزان في الحياة العاطفية، وهذا هو أساس النزعة الطقسية **.(ritualism)** المغروسة – كثيراً أو قليلا – في كل منا، والتي ترغمنا – برغم أنفنا – على إجراء بعض الحركات (الأتوماتيكية) كالتسبيح أو إشعال السيجارة، أو التلفظ ببعض التوسلات عند الإقدام على أي عمل، تخفيفاً لتوتر أعصابنا.

وكما يقاس السحر بدوافعه، يقاس أيضاً بثماره. فإن السحر في العالم القديم حل محل قوانيننا ولوائحنا الحالية، بفرض سنن سنها حكماء القبيلة، فوضع الطعام والشراب والنشاط الزراعي ومواسم القنص، وتربية الأولاد.. الخ. قوانين، مع فارق مهم هو أنه اعتمد على الرعب من الأرواح، بينما نرتكن اليوم على الوعي الاجتماعي.

ولا شك في أن بعض الفروض والتحريمات كانت مبنية في كثير الحوال على الخبرة والتجربة، ولكنها في حالات أخرى كان ضررها أكبر من نفعها، وربما رجع هذا إلى فارق آخر بين السحر، وهو جامد لا يقبل التغيير، وبين العلم الذي تتغير أسسه كلما قام البرهان على خطئها.

بقي أن نقول إن هذا الحكم علي السحر يبدو أقسى مما يجب، لوجود ظاهرات لا شك فيها، يستعصي درجها فيما هو معروف للعلم، وتلك الظاهرات فسرت بأنها نتيجة: إما للتلفيق والدجل، وإما لتخيلات وهمية مردها إلي الإيحاء؛ وإما لأفعال قوى طبيعية ما نزال نجهل كنهها ومداها.

وتلك القوى – التي تأتي بنتائج تبدو كأنها من ثمار عوامل متسمة بالذكاء وحرية الإرادة – هي موضوع علم المتابسكولوجيا أو علم "ما وراء النفس" الذي يدرس قضاياها بالطرق الإحصائية والعلمية نفسها التي تتوخاها العلوم التجريبية المعهودة.

وقد أوصت الأديان السماوية بالابتعاد عن تلك الأعمال، وأسندتها إلى أشخاص وأرواح شريرة أو إلى الشياطين التي لا يمكن للإنسان العادي تمييزها عن الأرواح الخيرة، وقالت بأن تلك الأرواح قد تسخر لإسقام السليم أو لإلحاق الأذى بشخصه كما قالت إنه يمكن – إذا ما عرفت تلك الشياطين – طردها بتسليط من هو أقوى منها عليها، واعتبرت تلك الأفعال كفرا يعاقب عليه "وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا" (من سورة الجن)، وقالت إن أنجح الوسائل لمحاربتها هي الإيمان بالله والاستعاذة به. وربما كان هذا تعريفا أساسيا للسحر يميزه عن الدين، وهو أن السحر يوسط الأرواح المؤذية، بينما الدين يتضرع إلى الله تعالى ويتشفع بأوليائه، فهو – دون مرية – أقوى منه ويفوقه مقدرةً، كما قضى ما صنعه موسى على سحر فرعون .

الطب اللاهوتي

"اختلافه عن السحر وشبهه به"

اختلفت أساليب الطب اللاهوتي عن أساليب السحر في الجوهر، وإن شابهتها في الشكل، ذلك أن السحر يدعي سلطانا مباشراً على قوى العالم، بينما أن الطب اللاهوتي يلجأ إلى تلك القوى المجسمة في آلهته متوسلا إليها أن تحقق مطالبه.

ولكن الطرق التي اتبعها الطب اللاهوتي كانت، أحيانا، شديدة الشبه بتلك التي يمارسها الساحر قبله، وهذا لأسباب عدة: منها أن الطب اللاهوتي انحدر عن الطب السحري انحداراً طبيعيا أدى إلى مسايرة المذاهب الجديدة للعقائد العتيقة ردحا طويلا من الزمن، بل إلى بقاء شوائب من السحر في الأديان التي تتبعه، وإلى العقيدة في فاعلية الأسلوبين، بل إلى احتفاظ الكهنة بألقابهم السحرية إلى جانب ألقابهم الكهنية .

ومما أكد فاعلية السحر عند جمهرة الناس أن الكتب السماوية ذكرته وزخرت بقصص منه؛ فقد ذكرت أن موسى مارسه، وتحدثت عن شجرة الخلد التي كانت – حسب تفسيرها اللفظي في التوراة – تكسب آكلي

ثمارها الخلود كأن هذه الهبة مرتبطة بالثمار فلم يكن بد من أن يقصي الله، آدم من الجنة خوفاً من أن يأكلها فيصبح مثله (التوراة).

وقد استغل الكهنة تلك الملابسات، وشجعوا الناس على الإيمان بتلك العقائد، وكتموا أسرار طقوسه رغبة منهم في احتكار طرائق التوسل إلى الآلهة، واقتبسوا أساليبه في خدمتهم الدينية، مما جعل التفرقة بين الدين والسحر من الصعوبة بمكان، لأنهما متداخلان كل منهما في الآخر. وقد حاول الكثيرون تحديد الفيصل بينهما، فقال البعض إن الدين هو العقيدة، والسحر هو الطقس، إلا أن ديناً لا يرسم لمعتنقيه خط السير في الحياة لا يسمى دينا ولا يزيد على كونه نظرية فلسفية خالصة. وقال البعض الآخر إن الإنسان – في بدء إيمانه بالآلهة – كان يسلك إحدى طريقين: الأولى محاولة الاستعانة بهم، كان يستعين بهم الساحر، وهذا النوع من الخدمة اللاهوتية الذي لم يختلف عن السحر لا في جوهره ولا في شكله، هو الذي ساد الفكر الديني في عصر الفراعنة، وقد اكتسبت الطقوس الخاصة بهذا النوع من العبادة جمود الوسائل السحرية نفسها، واصطحبتها تلك الحركات وذلك الارتباط بالأرقام.. الخ

أما الطريقة الثانية فجوهرها قبول سلطان الآلهة ثم مساومتهم بقبول الفروض الخلفية وواجبات العبادة ثمنا لما يتطلب منهم من حماية ورعاية، وربما كان هذا الاختلاف في الموقف هو الفيصل الحقيقي بين السحر والدين.

أما التعريف الثالث – الذي ذكرناه – وهو أن السحر يستمد تأثيره من قوى مؤذية، بينما الدين يتوسل إلى الله ويستشفع بأوليائه، فإنه ينقل كل الأديان الوثنية إلى حظيرة السحر، وهذا ما لا يمكن قبوله، لأن بعضها ارتفع إلى منسوب روحاني عال، ولم ير في الاصنام إلا رموزا لمعان شعرت بوجودها وإن لم تقدر لها المعرفة الكاملة.

اختلاط الآلهة بالسحر في الطب الفرعوني :

عاصرت مصر الفرعونية مرحلة عبادة الآلهة، وإن نظر المثقفون من قدماء المصريين إلى الأصنام كصور لمعان أكثر سمواً، أو حسبوها رموزاً لأركان الكون، وإن جرت من جانبهم محاولات جريئة ترمي إلى التوحيد، فإن الشعب ظل يعبد عدداً لا حصر له من الآلهة الثانوية، ولذا فإن أغلب السحر والطب السحري في مصر القديمة كان من النوع اللاهوتي أو الكهني.

إلا أن المصريين لم يفردوا للطب إلها، كما فعل الإغريق بإسقلابيوس، وإن ذكروا بعض الآلهة في سيرة الأمراض والأطباء، ورد هذا في سياق الكلام عنهم، على أنه جزء يسير من مجموعة أساطيرهم وأعمالهم، لا يرتبط بصفاتهم العامة أو باختصاصاتهم الرئيسية إلا عن طريق الصدفة أو القياس.

وقد وضعوا علي رأس الآلهة "تحوت"، وسموه "القيَّاس" – أي الذي يقيس – إذ أنهم عزوا إليه اختراع العلوم المضبوطة والرياضة والأدب والفنون والعلوم السرية وأسس الدين، ونسبوا إليه تأليف الكتب المقدسة

(ومنها الأجزاء الاثنان والأربعون التي ذكرها كليمان الإسكندري)، واختراع الصيغ السحرية الشافية؛ وكان في السحر لا يقل تضلعاً عن إيزيس ذاتها، وقد صوره على شكل طير أبيس (أبو قردان) أو على شكل إنسان رأس "إيبيس" مكلل بهلال القمر وقرص الشمس، ممسك بفرع نخلة أو بالقلم واللوح، وقال عنه الإغريق فيما بعد إنه هو ذاته إلههم "هرميس" مثلث قوى.

ومن الاختراعات التي نسبوها إليه الحقنة الشرجية، لزعمهم أن طير الإيبيس سيتجه إلى الشواطئ، ويملأ منقاره ماءً، ثم يدخله في الشرج فيحقن فيه الماء لغسله، والمرجح أن هذه الملاحظة غير صحيحة.

أما ايزيس مثال الأنوثة والأمومة، فإنها بعد أن قتل "سيث" زوجها "أوزيريس" وأخفى جسده، كابدت متاعب مبرحة بحثا عنه بمساعدة أختها نفثيس حتى عثرت عليه في "ببلوس" في لبنان، وأنجبت منه طفلا، فإنهم كانوا يتوسلون بها لإعادة الصحة إلى المرضى، وقد مثلت في أسطورة "رع" دور الساحرة، وسُميت أيضا بالساحرة الكبرى. وبالمثل فإن سيث قاتل أخيه كان رمزا لكل روح شريرة، ونظر إليه كناشر الأمراض والأوبئة.

ومن التطورات العجيبة في التفكير الديني أن "سخمت" — ذات رأس اللبؤة المكلل بالشمس والكوبرا، الإلهة المحبة للدم، هادمة الجنس البشري في أسطورة إبادة البشر، وزوجة "بتاح" وأم "نفر توم" و"إمحوتب" فيما بعد – تحوَّلت في نظرهم فأصبحت إلهة لآلام البشر، ومثلت على هذه الصورة على جدران من معبد "ساحورع" الجنزي (الأسرة الخامسة) في أبي صير،

وأصبحت تلك الصورة التي اشتهرت بصنع المعجزات موضع عبادة شعبية. وانتشرت عبادة "سخمت" وأسست لها المصليات في المعابد في مصر بأجمعها في وقت مبكر وقام بشعائرها كهنوت منظم (أوابو) يتصل بالمرضى وله دستوره الخاص، ويعمل وسيطا بين جمهرة طلاب الشفاء وبين الآلهة، مجردا عن أي اختصاص طبي بالمعنى الفني للكلمة، إلا أن الجمهور – بعد وقت ما – نسب إليه قوى "سخمت" الشافية ومعجزاتها، فقام الكهنة عندئذ بشفاء المرضى بوحي مباشر من الإلهة، وكانوا ممن يعرفون النبض.

وهناك – غير أولئك – أشخاص جمعوا ين صفتي الطبيب وكاهن سخمت، منهم: ون – نفر (أو نوفريس)، كاهن سخمت والطبيب المفتش، و(إيري يختي)، رئيس الكهنة وطبيب السراي، و(هير يشفنخت) رئيس كهنة سخمت، ورئيس السحرة وطبيب الملك.

وفي أثناء هذا التطور انتظم كهنوت سخمت على شكل هرمي، فنجد من بينهم كهنة سخمت (أوابو سخمت)، ثم رؤساء هؤلاء الكهنة وبينهم اثنان اتهموا في مؤامرة ضد رمسيس الثالث، وفوقهم رئيس كهنة سخمت في مصر قاطبة، مثل "سوم تو تفنخت" الذي نال بمهارته الطبية حظوة لدى عدد من الملوك الذين حكموا مصر في هذا الوقت، وكان قد خلف خاله رئيس كهنة "سخمت" في الجنوب والشمال في هذا المنصب.

أما أطباء الرمد فكانوا في رعاية تحوت الذي شفى حوريس بعد أن مزقه سيث الشرير إلى أربع وستين قطعة، وكذلك في رعاية آمون الذي كان

يلقب أحيانا "بالطبيب الذي يشفي العيون بغير دواء" أو "آمون مفتح العينين" أو "شافي الحول".

ولكن الإله الذي اختص بأمراض العيون كان (دواو). وكان مركز عبادته في عين شمس الحالية (إيونو) وكانت صورته عليها الشارة التي تميزه. وقد ظهرت تلك الشارة كذلك في الكتابة الهيروغليفية لألقاب بعض كهنته، مثلا: "ني غنخ دواو" (الحياة ملك لدواو) وكانت كثرة أطباء الرمد من الكهنة المتصلين به، أمثال (ميدو نفري). إلا أن حوريس انتقل في العصور المتأخرة من مركزه في دمنهور إلى إيونو، فحل محل "دواو" وأصبح إله أمراض العيون بدلاً منه، ثم انتقل حورس من عين شمس عبر النيل إلى ليتوبوليس (وهي أوسيم الحالية) وسمي هناك (حوريس مخنتي إيرتي) أي حوريس صاحب الوجه ذي العينين.

والظاهر أن العلاقة الوطيدة بين "دواو" و"حورس" في عين شمس وجارهم (مخنتي إيرتي)، والمتعلقة بعلاج العيون، مبنية على علاقة وردت في الأساطير، حيث روي أن حورس أعطى عينا من البلور الصخري (كوارتز) إلى هذا الإله عندما فقد بصره.

ورأوا في (نيث) حامية للوالدات والأطباء، وكانوا يصورونها دائما في صورهم للولادة معينة للنساء في أثنائها، وكانت تُعبد في معبد سايس وتمثل باللبؤة، وكان في مقدورها أن تنفث هواء الطاعون من الصحراء، وأن تبعد الشياطين في أثناء النوم.

كان المرضى إذن يتوسلون إلى (آمون) أو (سخمت) أو (من) أو غيرهم من الآلهة دون أن يشعروا بالحاجة إلى إله للطب، ولكن الشعب في عهد البطالمة، رفع إلى هذه المرتبة رجلا اشتهر منذ أقدم العصور، وهو إمحوتب، الذي شيَّد أول هرم، والذي كان – قبل الميلاد بثلاثين قرناً – مستشاراً سياسيا ومهندسا معماريا، ولعله كان طبيبا لأحد ملوك الأسرة الثالثة (زوسير)، والذي عده الشعب بطلا منذ القرن السادس ق.م ثم آلهة الاغريق تحت اسم "إيموثيس" وقالوا إنه إسقلابيوس.

نظرة المصريين المزدوجة إلى المرض والطب:

سايرت نظرة المصريين إلى المرض، الازدواج بين النزعتين الدينية والتجريبية الغريزيتين في طبيعتهم، فقد كانوا يؤمنون بأن الجسم يولد صحيحا، ولا يمرض ولا يموت إلا نتيجة تأثير خارج عنه، فإذا رأوا للمرض سببا، مثل الجروح أو الديدان أو الإكثار من الطعام، عرفوه وعالجوه بطريقة تميزها الخبرة ودقة الملاحظة، وتبتعد كل البعد عن الشعوذه والسحر، وإن أشركوها بالطرق الأخرى في كثير من الأحوال، لأنها لا تختلف في جوهرها عن طرقنا العلمية الحديثة؛ أما إذا كان سبب المرض غير مرئي فإنهم كانوا ينسبونه إلى عوامل خفية .

وجهلهم بالميكروبات أو بالاستكشافات الكيماوية الحديثة لم يجدوا سبيلا غير نسبتها إلى أسباب خفية، إذ كانت في فطرتهم الموروثة من قديم الزمن انتقام الموتى أو عمل الأرواح الشريرة أو عقاب الآلهة، فكان يحتم

عليهم محاربتها بالوسائل التي تلائمها، وهي التوسل بروح أقوى أو الالتجاء إلى أعمال السحر المبنية على المبادئ التي وصفناها فيما سبق.

وسائل الطب الروحاني:

وكانت وسائلهم في هذا مختلفة الأنواع، منها الأساليب السحرية المحضة، كالطلاسم والأحجبة والتعاويذ واستعمال المواد الغريبة، كشعر التيس وروث فرس البحر والتمساح... الخ، وهذا إما لدلالات تلك المواد الرمزية، أو بغية نقل المرض أو الصحة من عضو المريض إلى عضو حيوان أو العكس. ومن أمثلة نقل المرض أن توضع عين الخنزير في أذن المكفوف لإعادة البصر اليه مع تلاوة هذه التعويذة: "ذهبت للبحث عن (هذا) الذي ينبغي وضعه محل (ذاك) لاستبدال ألم فادح، (إبرس٣٥٦). والمفروض أن هذا الإجراء يستبدل عين الكفيف بعين الخنزير وهي سليمة. ومن الأمثلة الأخرى دلك نصف الرأس المتألم برأس سمك (نار) مقلي في الزيت لنقل الألم من رأس المريض إلى رأس السمك.. إلا أننا قلما نجد تلك الأساليب مستعملة بمفردها، بل تقابلها في العادة أساليب روحانية أو لاهوتية.

وتتخذ الأساليب اللاهوتية أحد الأشكال الآتية:

أ) فقد تنظر إلى المرض على أنه من فعل روح شريرة دخلت الجسم، وفي هذه الحال يركز السحر عليها إما بالأمر، حين قال لها مثلا: "أخرجي يا كاسرة العظام، يا متسللة إلى الشرايين" أو حين يقال للمرض "أخرج مع البصاق، أخرج مع القيء..." أو بادعاء عدم الإذعان إلى الروح الضارة:

"أحضرت لتقبيل هذا الطفل؟.. لا، فلن أرخص لك بتقبيله.." "أأتيت لإصابته بضر؟.. لا، فلن أبيح لك بأن تنزلي به ضرا.." "أأقبلت لتأخذه معك؟.. لا.. فلن آذن لك باصطحابه.." "إني أحضرت لك دواءً من العسل وهذا ما يأتيك بالشر، ومن البصل وهذا ما يأتيك بالضر.. عسل حلو المذاق للأحياء ولكنه مر للأموات"، أو بذكر اسم المرض كأن يقال "إني أعرف اسمك.. ألست أعرف اسمك؟"

وكانت معرفة الأسماء تمنح لمن يعرفها قوة التحكم على أصحابها كما رأينا من قبل.. أو بالتحايل إذا شك الساحر في معرفته لاسم المرض فيصيح: "أأنت خادم... فلتخرج في القيء... أأنت نبيل؟ فلتتسرب في البول.." أو بتهديد الروح المؤذنة بالشر أو الأذى: "أيتها الروح – أذكرا كنت أو أنثى – اختفي يا ساكنة الحي هذا. أخرجي من لحمي هذا.. أخرجي من أعضائي هذه.. لقد أحضرت لك هذه الفضلات لتأكليها.. فاحترسي يا خفية وأهربي.." أو بادعاء الصحة والمناعة عن المرض كأن يقال: "إني سليم.. كيف أصاب وأنا سليم البدن؟ لقد شاهدت الكارثة الفادحة ولكنها لم تصبني بأذى، أنا الذي خرجت من هذه الكارثة سليما مُعافا."

ب) وقد تكون تلك الأساليب مبنية على الالتجاء إلى الآلهة لطلب تدخلها في الأمر: "السلام عليك يا حورس يا أيها الموجود في بلد المئات يا حاد القرنين، يا بالغ الهدف، إني قصدتك لأمدح جمالك.. ألا فلتقض على الشيطان الذي يمتلك جسدي" أو بأن تنتحل ذات الإله كما

ورد في التعويذة الآتية: "اغربوا يا شياطين المرض لن يصيبني الهواء.. إنني حورس الذي يمضي في طريقه أمام سخمت.. أنا ابن بستيت الوحيد، ولن أموت بسببك". أو أن يمنح كل عضو من أعضاء المريض صفة إله من الآلهة.. "إن قمة رأسك هي رع، وقفاك هو أوزريريس، أذناك حيتان، ذراعك حورس، سرتك نجم الصباح، وإنما كل عضو فيك إله، وكل إله يحمي اسمك، وكل ما فيك.." ونرى أهمية معرفة الاسم في الفقرة: "وكل إله يحمي اسمك". ولا غرابة في منح كل عضو صفة إله، فقد كانت هنالك نظرية تشريحية سادت الفكر الطبي حتى القرون الوسطى، تقول بأن لكل عضو علاقة بفلك وعنصر ومعدن.. الخ. ومن العجيب أن أثر هذه الرمزية لا يزال باقيا حتى اليوم في أسماء أجزاء الجسم.. ومثال ذلك جبل الزهرة، وفقرة أطلس.

وإلي هذا فقد كانت هناك رقى تعتمد على روايات شفاء بعض الآلهة التي وردت في الأساطير، فتحاول إعادة أحداثها، أو تبنى على القياس الزائف، فمثلا لإيقاف نزف الحيض كان يقال: "أتى أنوبيس ليمنع النيل من دخول المعبد حتى يحمي من كان بداخله" وفي ذلك تشبيه الحيض بفيضان النيل؛ أو كالتعويذة التالية التي كانت تذكر على شكل حوار لعلاج الحروق: "الرسول: ابنك حوريس يحترق علي الهضبة" "إيزيس: هل هناك ماء؟" "الرسول: لا يوجد هناك ماء" "إيزيس: عندي ماء في فمي ونيل بين فخذيّ، لقد حضرت لإطفاء النار" وهذه التعويذة كانت تقرأ على مزيج من لبن امرأه أنجبت طفلا ذكرا، وصمغ وشعر تيس يوضع على الحرق .

أما طرائق استعمال التعاويذ فكانت متباينة، فمنها ما كان يستخدم بمصاحبة علاج، ومنها التي كانت تتلى في أثناء تحضير الدواء، فتضيف إلى تأثيره، أو تضفي على محتوياته صفة الدواء[1].

ومنها التي كانت تتلى على الشخص المعوَّذ، أو على (حجاب) مكون من قماش أو خيط معقود أو ريش رخم أو شعر حيوان.. الخ، وهذا الحجاب هو الذي كان يحمل قوة التعويذة فينقلها من الساحر إلى المريض، دون استخدام دواء ما. ومن الغريب أن الطبيب أو الساحر، عندما كان يرتل التعويذة، كان يتكلم بلسان الإله تارة، والساحر الآمر طورا، والمريض أحيانا.

[1] كانت الصيغة الآتية تتلى على سلحفاة صفراء في أثناء صحتها بالعسل لصنع مرهم يوضع على الجفن لعلاج السحابة (ابرس٣٢٠) "هناك ضوضاء في سماء الجنوب منذ غروب الليل، وزوابع في سماء الشمال.. وقع كوم من الرؤوس المقطوعة في الماء.. من يستردها؟ لقد استرددتها.. وقد أعدتها إلى أماكنها.. لقد ربطت فقرات رقابكم.. لتبعدوا أذى الإله أو الميت أو الميتة. وجاء ذكر صفراء السمك في العهد القديم في قصة طويا (١١،١٣ إلى ١٥) التي تروي أن ملكا أعطى طوبيا صفراء سمكة لإزالة السحاب الذي أظلم نظر أبيه.

أقدم كتب الطب في العالم

لفـائف البـــردي الطبـــية

عندما أفاق المصريون من السبات العميق الذي كان دفعهم إليه الهكسوس الجهلة، نشأت طبقة وسطى مثقفة في غضون الإمبراطورية المتوسطة أتيحت لهم الفرص التي كانت حتى هذا الحين وقفا على الكهنة والأمراء، فبدأت تتأسس في ماضي مصر المجيد أساساً لبناء مستقبل جدير بها. وقد انقضى علي بناء الهرم الأكبر أكثر مما انقضى بين فتح الإسكندر لمصر ويومنا هذا،

ورحلت أسماء مينا وإمحوتب وخوفو إلى عالم الأساطير (بينما أن حرب طروادة ووقائع الإلياذة والأوديسة وقعت بعد ذلك العهد بحوالي ثلاثة قرون)، فعكف الفراعنة والأثرياء والمثقفون على جمع القراطيس القديمة، وكلموا النساخين في "بيوت الحياة" (التي سيأتي شرحها فيما بعد) بنقلها. وأغلب لفائف البردي الطبية التي كشفت إلى اليوم ترجع إما إلى هذه النهضة الثانية – التي ازدهرت في غضونها فنونها وحضارتها من الهند إلى أواسط أفريقية – وإما إلى العصر الذي سبقها بقليل.

أصول لفائف البردي الطبية وتاريخها:

واستجلاء هذا الامر من الصعوبة بمكان، لأن اللفائف التي في أيدينا ليست إلا نسخاً متخلفة من أصول قديمة استنسخ الكتاب منها ما وقع في أيديهم، كاملا أو منقوصاً، حتى الأجزاء الممزقة منها مهما كان اختلاف المواضع التي تناولتها، تباعاً على لفافة البردي نفسها حسب ورود الأجزاء إليهم.

ولا عجب، فإن تلك اللفائف الأثرية كانت نادرة، وقد أصابها من الدهر ما أصابها. على أن البردي الخام كان باهظ الثمن بل ربما كان يحتكره البلاط، وكان النساخون قليل عددهم، مرتفعة أجورهم، وهذا جعل المخطوطات عزيزة. وما يدرينا؟ فربما كانت البردية الواحدة من تلك البرديات تحل محل مكتبة كاملة، وتضم في لفافة واحدة المؤلفات المختلفة التي أراد صاحبها اقتناءها.

ومن دلائل افتقار تلك اللفائف إلى النظام في تصنيفها تباين محتويات كل منها في الجوهر والروح كما سنرى فيما بعد، بل في الخط نفسه، ولذا فإنه ينبغي لنا الا نقرأ تلك اللفائف على أن كلا منها مؤلف قائم بذاته، بل يجب أولا إجراء عملية تحليل لأجزائها المتباينة ثم قياس تلك الأجزاء بأمثالها من اللفائف الأخرى من حيث الخط واللغة والروح والموضوع، وضم القطع المتناظرة والمتكاملة، لعلنا بهذه الطريقة نستقرئ ما كانت عليه النصوص الأصلية التي اقتبست منها تلك المؤلفات.

أما إن تلك البرديات منقولة عن نصوص أقدم منها فهذا لا مراء فيه، ويتضح من عبارات عديدة وردت فيها ترجع أجزاء منها إلى مؤلفات أقدم منها، ومن قصص تذكر وجود لفائف سحيقة في القدم، وكثيرا ما تفخر اللفائف بعراقة أصلها، إلا أن هذه النسبة في كثير من الحالات مختلفة تساير ذوق الجمهور لتقنعه بأصالة نصوصها. نرى مثال ذلك في لفافة لندن التي تقول عن نفسها أنها أنزلت من السماء بين ظلام دامس يضيئها شعاع من القمر، وسط فناء معبد تمبيس، فضمت إلى كنز خوفو (الذي عاش ألف سنة قبل تاريخ كتابتها). ثم إنه ورد في مستهل باب التقيح من لفافة إبرس أنه منقول من مخطوط وجد تحت قدمي تمثال الإله أنوبيس في ليتوبوليس فنقل إلى الفرعون أوزافاييس خامس فراعنة الأسرة الأولى، وأكدت لفافة برلين تلك الرواية.

وتثبت قدم أصول تلك اللفائف دراسة النصوص لغويا، فإننا نلتقي بكلمات كانت مهجورة وقت نسخها فاستدعت تعريفا من جانب النساخ، أو عبارات مثل: "هنا وجد ممزقاً" أو تعليقات شخصية مثل "جربت هذا ووجدته طيباً" وهي مكتوبة في السياق بيد النساخ أنفسهم، وهذا لأن الأصل نقل على علاته بدون تمييز.

وقد أكدت روايات المؤرخين القدامى وجود موسوعات قديمة في الطب تعد أقدم كتابات طبية في العالم. روى مانيتو الكاهن بمعبد هليوبولس (٢٨٠ ق.م) أن أثوتيس ابن مينا موحد الشطرين ألَّف كتبا طبية ومنها مؤلف في التشريح، وأن مكتبة منف كانت تزخر بالكتب الطبية

في عهد إمحوتب (٣٠ قرن ق.م) وتحدث كليمان الإسكندري (القرن الثاني الميلادي) عن موسوعة سرية في ٤٢ جزءاً في العلوم قاطبة منها ٦ في الطب كانت تحفظ في المعابد.

إلا أن اللفائف على إطلاقها لا تمثل غير جزء من معلومات أطباء الفراعنة، فهناك ما يدل على أن علماء مصر اتبعوا طريقة التلقين الشفوي من الأب إلى الابن أو من الأستاذ إلى تلميذه بعد درجة معينة من التعليم حرصاً على سريته، مما يحمل على الظن بأن معلوماتنا عن طبهم سوف تظل ناقصة لعدم تدوينه بأكمله.

كما أنه يستدل من عدة روايات ونصوص على أن تعليم الطب كاد يعد سراً لا يفشى إلا لمن أقسموا اليمين، روي إسترابون أن الكهنة أخفوا عن أفلاطون و"أودكسوس" الجزء الأكبر من علمهم حتى بعد أن أمضيا ثلاث عشرة سنة في مصر. ودوَّن ابن أبي أصيبعة رواية مماثلة بصدد زيارة فيثاغورس لمصر.

ومن مظاهر السرية التي أحاطت بتعليم الطب حتى عهد الإغريق المزدهر فقرة جاءت في قسم أبقراط، الذي كان يقسمه كل من رغب في مزاولة الطب، وقد حار فيها المفسرون وهي: "وأشرك أولادي، وأولاد المعلم لي، والتلاميذ الذين كتب عليهم الشرط وحلفوا بالناموس الطبي في الوصايا والعلوم وسائر ما في الصناعة وأما غير هؤلاء فلا أفعل بهم ذلك."

وتبدو هذه السرية كأنها من رواسب قرون سبقت أبقراط، وربما كانت من آثار الطقوس الفيثاغورية والأورفية وغيرهما من المذاهب السرية السائدة، ونحن نعلم ما يدين به فيثاغورس وغيرة من فلاسفة الإغريق للمصريين.

أهم اللفائف الطبية:

وأهم لفائف البردي التي كشفت اليوم هي ثمان، أطلق عليها أسماء مكتشفيها أو ناشريها أو أصحابها أو المدن التي تحفظ فيها أو القرى التي وجدت فيها. وتلك اللفائف هي لفافة إدوين سميث وإبرس وكاهون وهرست وبرلين وشستريتي ولندن وكارلزبرج، وهناك مخطوطات ثانوية أخرى، ولا شك أن أرض مصر الضنينة تكتنز في باطنها لفائف أخرى تضن علينا بها إلى اليوم.

وكان يقوم بالنسخ كتاب محترفون ليسوا من الأطباء، وإن رجح "جرابو" أن كاتب لفاقة "كاهون" طبيب؛ ومما يحمل على الظن أن بعضهم كان فعلا من الأطباء أن بعض الأطباء كان يحمل بين ألقابه لقب "كاتب" ورسم على النقوش حاملا لرمز الكتاب، وهو الريشة ولوحة حاملة لإنائين من أواني المداد. ولكن الكاتب لم يكن مجرد خطاط في هذا العصر الذي كانت فيه الكتابة علما سريا، بل كان يجمع صفات الكاتب والأديب والفيلسوف.

ويبدو أن عملية النسخ كانت تمارس في مؤسسات متخصصة تشبه الاكاديميات الحالية، و"موسيون" الإسكندرية في عهد البطالمة، وكانت

تسمى "بيوت الحياة" ويلتقي فيها العلماء والفلاسفة والأطباء وطلبة العلم في ندوات علمية ليتبادلوا الآراء فيها.

لفافة كاهون:

وأقدم لفافة وصلت إلينا هي لفافة كاهون التي اكتشفت في مدينة اللاهون بالفيوم، وترجع إلى عام ١٩٥٠ ق.م. وقد دُوِّن علي ظهرها حساب من عهد أمنمحات الثالث أحد فراعنة المملكة الوسطى (١٨٤٠-١٧٩٢ ق.م)، وهي ليست فقط أقدم اللفافات في تاريخ نسخها، بل إن أصلها يبدو أيضا أقدم من أصول اللفافات الأخرى. وتتكون تلك اللفافة من قسم طبي وقسم بيطري وقسم خاص بحل بعض المسائل الحسابية، كتبت كاللفافات الأخرى بالهيراتيقية فيما عدا الجزء البيطري الذي كتب لأمر بالهيروغليفية؛ وهو خط كان وقفاً على الكتابات الدينية.

أما القسم الطبي، وهو الذي يعنينا، فيقع في ثلاث صفحات، الأولى متآكلة ممزقة مشققة رممت في عهد قديم بلصق قطع من لفافات بردية أخرى على ظهرها. والثانية في وسطها ثقب كبير وليس بها من الأسطر الكاملة إلا سبعة. والثالثة أعيد تكوينها من ست وأربعين قطعة متناثرة.

وتضم الصفحتان الأوليان سبعة عشر تشخيصاً ووصفة في أمراض النساء، ولم يوضع عنوان لكل تشخيص، وفي شأن العلاج لم يذكر أي إجراء جراحي، وإنما اكتفى بوصف العقاقير، مثل الجعة واللبن والزيت والبلح وبعض الأعشاب، والعلاج بالغسيل والتبخير المهبلي.

وتحوي هذه الصفحة الثالثة سبع عشرة علامة لتمييز العقيمات من بين النساء والتكهن بجنس الجنين. مثال ذلك أنها تشير لمعرفة خصب السيدة بأن تجلس السيدة فوق بقايا جعة و...، فإذا تقيأت كانت خصبة، ودل عدد مرات القيء على عدد الأولاد الذين سوف تلدهم. أما إذا لم تتقيأ فإن هذا يدل على أنها عقيم.

والظاهر أن كل الإشارات الخاصة بمعرفة العقم مبنية على نظرية أن هناك اتصالا بين المهبل وبقية الجسم في حالة الخصب، وهذه النظرية هي التي أوحت ولا شك بالوصفة الأخرى، وهي وضع لبوس من الثوم في المهبل ثم ملاحظة رائحته في الفم إذا كانت المرأة خصبة .

وقد استعمل الإغريق الطريقة نفسها، ووصفها أبقراط في كتاب الفصول، وليس ثمة شك في أنه اقتبسها منهم، ثم توارثها أطباء الغرب ثم الإفرنج حتى استعملت في القرون الوسطى في أوربا، وهذه الطريقة قد تبدو لنا خيالية أو مبنية على تأملات مجردة، إلا أن الأستاذ الدكتور أحمد عمار أبدى أنه يجب ألا نستبعدها دون أن نجربها، فقد لاحظ أن الخصبات من نتيجة لانتقال اليود الموجود في اللبيودول من الرحم إلى التجويف البريتوني، ومنه إلى الرئة إذا كان البوقان سالكين.

وتعتمد بعض الإشارات الخاصة بالولادة على حالة الثديين وقوامهما، أو على لون البشرة والعينين. وما نزال نرى في مصر الحموات يتحسسن ثديي زوجة الابن ويترقبن ظهور البقع السمراء على الوجه عند أول حدوث الحمل. غير أن الكثير منها مبني على استخدام التعاويذ وعلى

طرق تمت إلى الدجل والشعوذة، أكثر مما تتصل بالطب الحقيقي، وهي في هذا شبيهة بما جاء في الموضوع نفسه على ظهر بردية برلين.

لفافة إبرس:

هي أضخم لفافة اكتشفت إلى اليوم، وصلت إلينا كاملة في ١٠٨ صفحات، وتحمل تاريخ السنة التاسعة من حكم أمنوفيس الأول (١٥٥٠ ق.م)، ولكنها كسائر اللفافات ليست مؤلفا ذا وحدة موضوعية، بل إنها أشبه بلوحة الفسيفساء المستمدة قطاعاتها المختلفة الألوان من أجزاء مؤلفات أخرى متناثرة، وهي تبدأ بديباجة سحرية. وكان الغرض من تلك الديباجة تقديم الحجة على أصالة الكتب الإلهية، وعلى أن قوة السحر مستمدة من إله الخير تحوت، الذي كلفه رع بحماية البشر المتألم، ثم استعمالها تعويذه شافية. وهذا الاتجاه الروحاني جلي في الأصول التي تنسب إليها بعض الوصفات، فإن ستا منها ابتكرها الآلهة لأنفسهم!..

ويمكن تقسيم محتويات هذه اللفافة – التي يجدر بنا أن نسميها موسوعة – إلى توسلات للآلهة وتعاويذ، ثم قسم خاص بالأمراض الباطنية وعلاجها، وهو يعد أول مؤلف في التاريخ يعالج سر الحياة بتأملات فلسفية غير دينية أو سحرية، ولو أنه يرد أغلب الامراض الباطنية إلى أسباب روحانية، ثم تجيئ وصفات لأمراض العيون وغيرها، كأمراض الجلد، وللتجميل والزينة وإنماء الشعر، ثم باب في أمراض الأطراف، ويتناول الكسور والحروق ولم يعالج الجروح، وهو شبيه بما جاء في لفافة إدوين سميث في هذا الصدد، ثم وصفات مختلفة ودراسة لأمراض النساء وعلاجها

يعيد الكثير مما جاء في لفافة كاهون، ومؤلفان عن القلب والشرايين هما المؤلفان الوحيدان اللذان وصلا إلينا في علمي التشريح ووظائف الأعضاء ؛ ومؤلف في الجراحة اقتصر على الأورام والخراجات ولم يتناول الجروح، وقد سمي بـ (كتاب الأورام). وقد حوت هذه الموسوعة ٨٧٧ وصفاً، بعضها في كيفية التشخيص، وبعضها مقرون بالعلاج، وبعضها إشارات علاجية.

ومن الأوصاف الإكلينيكية تعرف إيبل على خمسة عشر مرضاً، منها التورم والاستسقاء والقيلة والجزام، إلا أن علماء اللغة لم يرضوا عن كل ترجماته وتفسيراته، لأن الكثير منها لم يصحبها ما يبررها، وأذكر على سبيل المثال بعض الأوصاف الإكلينيكية الجميلة.

تعليمات خاصة بورم الأوعية:

إذا فحصت ورما في الأوعية في طرف من الأطراف ووجدته نصف كروي يتضخم تحت يدك كل مرة (أي ينبض) ولكنه إذا فصلته عن بقية الجسم لا ينبض وبهذا لا يمكنه أن يتضخم وأن ينكمش، فقل عنه أنه ورم في وعاء، إنه مرض سأعالجه وأن الأوعية هي التي سببته، وقد نشأ عن إصابة للأوعية. وهذا وصف صحيح لورم شرياني ولمميزاته، وهي أنه ينبض، وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلي، كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة وأن وصول النبض إليه من الشريان فوقه عرف أيضاً.

وإليك وصف الفتق:

توجيهات خاصة بورم غطاء قرني البطن (أي الحدود السفلى للبطن التي تشبه القرنين في شكلها): إذا تفحصت تورما في غطاء قرني البطن فوق العانة، فضع إصبعك عليه وتفحص بطنه وأطرق على أصابعك، فإذا تفحصت ما برز وظهر في إثر سعال فعليك أن تقول في شأنه هذا ورم في غطاء البطن... هذا مرض سأعالجه.... الخ.

ونلاحظ في هذين الوصفين دقة الوصف إذ أنهما أبرزا أهم النقط في تشخيص الورم الشرياني والفتق، وهي في الأول أنه ينبض وأن النبض يتوقف إذا فصل بينه وبين الوعاء الأصلي. (كما أن نشأة تلك الأورام من إصابات الأوعية ذكرت صراحة وأن وصول النبض إليها من الشريان فوقه عرف أيضاً)، وفي حالة الفتق ظهوره بعد السعال، كما أنه ذكر طريقة الفحص بطرق الأصابع التي اكتشفها من جديد أو نيروجر في القرن السادس عشر الميلادي .

وصف جميل للذبحة الصدرية:

إذا تفحصت مريضاً بالمعدة يشكو من آلام في ذراعه وصدره وناحية من معدته، فقل بصدده: هذا شيء (أي روح) دخل من فمه والموت يهدده.

ولا تقتصر أهمية موسوعة إبرس على الأوصاف الإكلينيكية التي جاءت بها، إذ أنها تعتبر أيضا مرجعنا الأساسي في علم عقاقير المصريين وفيما نسميه الآن المادة الطبية. ومن الوصفات العلاجية التي جاءت بها ما هو مركب من عقاقير فعالة ما نزال نصفها الي اليوم، وان كان استعمالها

يحاط أحياناً بإجراءات شبيهة بالسحر، كأن توصف في أشهر معينة من السنة فقط أو مصحوبة بالتراتيل والبخور... الخ.

ومنها ما كان سحرياً خالصاً يعتمد على إثارة الاشمئزاز في الروح الشريرة التي حلت بالجسم وأحدثت به المرض، أو على أحد ضروب التفكير الروحاني الأخرى التي سبقت لنا مناقشتها.

وسيأتي ذكر كل تلك المواد في باب العلاج، وسأكتفي بأن أذكر أن من تلك الوصفات وسائل لمعرفة جودة لبن الأم ولتشخيص الحمل والإجهاض ولتحسين رائحة الفم.. ومنها باب (في علاج عضة الإنسان والتمساح وفرس النهر والسبع) يشابه لفافة هرست تشابهاً يكاد يكون تاما، وعلاج الأسنان المسوسة بحشوها بخليط من كربونات النحاس والصمغ ومواد أخرى، وهذا يُعد من أكثر علاجاتهم إثاره للإعجاب؛ أما أوصاف أمراض النساء التي جاءت في هذا المؤلف المحيط فإنها تشبه ما جاء في لفافة كاهون وعلى ظهر لفافة إدوين سميث تماماً.

ولعل أهم ما جاء في هذه المكتبة المختصرة مؤلف عن القلب والأوعية عنوانه "بدء سر الطبيب: معرفة حركة القلب". ويبدأ بهذه الفقرة: "هناك أوعية منه (أي من القلب) لكل طرف، وفي هذا الشأن فإن أي جراح وأي كاهن من كهنة سخمت أو أي ساحر إذا وضع يده أو أنامله على القلب، على ظهر الرأس، على اليدين، على المعدة، على الذراعين، أو على القدمين، فإنه يتفحص (بذلك) القلب، إذ أن كل أعضائه مزودة بأوعيته، أعني أنه (القلب) يتكلم عن طريقة أوعية كل

طرف".

وقد وجد الأولون الذين درسوا هذا المؤلف صعوبة كبيرة في تتبع نص هذا القسم، بل عثروا على تناقض بين فيما ورد فيه من معلومات، لأنه ذكر حيناً أن عدد الأوعية ٢٢، ثم قال إنها ٤٦، إلا أن علماء اللغة تمكنوا من حل هذا اللغز، وأوضحوا أن هذا المؤلف مشكل من مؤلفين مختلفين، كل منهما قائم بذاته، أولهما كتاب نظري عن القلب ووظيفته عن الأوعية وأهميتها، لم يرد به ذكر أي مرض أو علاج، بخلاف الثاني الذي تناول أمراض الأوعية والقلب وعلاجها، وهذان الجزآن اختلطا عند الكاتب فنسخ جزءا من المؤلف الأول، ثم جزءا من الثاني ثم الجزء الثاني من الأول، فبقية الثاني. ويماثل الكتاب الثاني ما جاء في لفافة برلين عن القلب، وروي فيه تاريخ كشفه كما روته تلك اللفافة، وذيل بتعليق طويل يماثل ما اختتمت به تلك اللفافة أيضا .

ومهما يكن من أمر الكتابين فإنهما يبرهنان دون مجال للشك على أن الأطباء المصريين عرفوا حركة القلب وعلاقة حركته بنبض الشرايين المتطرقة، أطلقوا على الشريان الرئيس القريب اسم "الوعاء" وهو في الغالب الشريان الأورطى.

لفافة هرست:

وهي تقع في ١٨ صفحة وتصف ٢٦٠ حالة وردت ٩٦ منها في لفافة إبرس أيضا، ثم إنها تحوي بابا عن العظام، وعلى الجملة فإن تلك اللفافة أقل قيمة من لفافة إبرس وإن فاقتها في بعض فقراتها.

لفافة برلين:

روي فيها مجاملة للنظرة اللاهوتية للطب، أنها وجدت في صندوق قديم مع كتابات عتيقة تحت قدمي الإله أنوبيس في ليتوبوليس في عهد الملك أوزافايس، وهي تشمل ٢٤٠ وصفة وتقع في ٢٥ صفحة، نسخت ثلاث منها بخط مختلف، وفي كثير من أجزائها تكرار لبعض فقرات هرست وإبرس، ثم أنها لمليئة بالأخطاء ومظاهر الإهمال، وأقل مدعاة للاهتمام، وبها باب عن الروماتيزم، وكتاب عن الأوعية يماثل ثاني كتابي لفافة إبرس في هذا الموضوع، وإن ذُيِّل بنبذتين، إحداهما عن أصل هذا الكتاب، وهي أكثر تفصيلا مما جاء في لفافة إبرس، والثانية تعد امتداداً وتوسعا لما ورد فيها، ويمكن وضع هذا الجزء في مستو أعلى مما ورد في لفافتي هرست وإبرس.

أما لفافة لندن: وهي مسيحة، أي ان الكتابة الأصلية مسحت عنها ليكتب عليها ثانية (مما يدل على غلاء ورق البردي) فهي تقع وسيطا بين كتب الطب السابق ذكرها وبعض كتب الرقى مثل "تعاويذ الأم والطفل" و"كتاب السحر" الموجود في تورينو، وقد وردت بها ٦١ وصفة منها ٢٥ فقط طبية، والباقي تعاويذ، والبعض منها من أصول دخيلة على مصر.

كتاب الأطباء السحري.. ؟
أو لفافة أودين سميث والجراحة

يمكن تقسيم نظرتنا إلى طب قدماء المصريين إلى مرحلتين: مرحلة قبل كشف لفافة إدوين سميث ومرحلة بعدها. إذ أن المؤرخين كانوا يظنون في أثناء الأولى أن الطب المصري كان مكوناً من قسط وفير من الشعوذة تصحبه معرفة جزئية للعقاقير والنباتات والتشريح،

وأن استعمال تلك الأدوية كان مبنياً في كثير من الأحوال على اعتبارات تتصل بالسحر أكثر مما تتصل بالطب. إلا أن هذه اللفافات أقامت أول دليل على وجود طب منطقي عقلي أساسه الخبرة والملاحظة وعلم تشريح سليم.

وهي تمتاز في أسلوبها باستعمال لغة التخصص، لغة قوية، غنية بالتعابير والتشبيهات الدقيقة. وفي موضوعها تبويب منطقي مرتب يدل على تقاليد طويلة وتفكير أصيل سبقا تأليفها، ويخلوها من أية نظرية أو أي مظهر من مظاهر الطب الروحاني التي تزخر بها المؤلفات الأخرى. وهي تصف ٤٨ مشاهدة في جراحة العظام والجراحة العامة، مرتبة حسب ترتيب أعضاء الجسم، تبدأ بالرأس وتتدرج إلى الأنف والفك، وفقرات الرقبة، وفقرات الظهر، والأضلاع، والصدر، والترقوة، والكتف، واللوح،

واليدين... ويحق لنا أن تتخيل أن الأصل كان يتناول بقية الجسم كالبطن والحوض والساقين... الخ، إذ أن آخر مشاهدة – وهي تتصل بالعمود الفقري – تختتم بعبارة ناقصة، كأن كاتبها تركها ليقضي أمراً ثم لم يتم كتابتها.

ويلاحظ أن طريقة العرض فيها تقسم بالنظام، فكل مشاهدة تبدأ بالعنوان التالي: "توجيهات بشأن.." ثم يجيء الفحص ويبدأ بالعبارة: "إذا تفحصت إنساناً به..."، ويتبعه التشخيص: "فقل فيما يخصه إنه يشكو من..." ثم المآل المتوقع، وهو يعبر عن احتمالاته الثلاثة: الجيد والمشكوك فيه والميئوس منه، بالعبارات التالية: "سأعالجه" أو "سأكافحه" أو "مرض لن أعالجه."

وبعد ذلك يأتي العلاج وينتهي ببعض التعليقات والتفسيرات اللغوية أو الفنية التي – وإن كانت موجهة إلى قارئيها في ذاك الوقت – فهي تمكننا اليوم من تفهم مدلولات ألفاظ كثيرة وردت بها. ولنذكر على سبيل المثال الأوجه الجديرة بإعجابنا في تلك اللفافة.

١– معرفة للتشريح غير ميسورة في هذا الزمن فإن اللفظ الدال علي المخ ورد – أول مرة في التاريخ – في عهد لم يكن فيه لهذا العضو تسمية في أية لغة من اللغات، كما ورد ذكر الكيس المغلف له، وفي هذا إشارة صريحة للأم الجافة والأم الحنون، وهما غشاء المخ، أما النبذ الخاصة بالعظام والفقرات فهي عديدة .

٢- الدقة في الفحص، وصحة تفسير العلامات الإكلينيكية، الأمر الذي لا يمكن تحقيقه إلا بمعرفة سليمة لقواعد فسيولوجية أساسية. فقد عرف صاحب هذا المؤلف معنى قرقرة العظام تحت اليد، واستعان بها في التفرقة بين الكسر والجزع، الذي قال عنه بحق إنه إصابة للأربطة دون تغير في وضع العظام. ومن التشبيهات التي تدل على أن الجراح كان يعني بتفحص مريضه بيده - بل إنه كان أحياناً يجري الصفة التشريحية على المصابين - تشبيه كسر الجمجمة بإناء من الفخار مثقوب وسطح المخ بتجعدات كتلك التي تعلو على النحاس عندما يذوب تحت تأثير النار، وقوله في كسور الرقبة: "إن الفقرة تنغرز في الفقرة التي تليها كما تغوص القدم في أرض منزرعة".

٣- الأهمية القصوى التي أعيرت للنبض في معرفة حالة المريض وحالة القلب، وقد جاءت في أول الكتاب نبذة طويلة عن الشرايين والنبض ومحل جسه، ومما يؤسف له أن هذه الفقرة وردت في الصفحة الأولى المليئة بالثغرات مما زاد في غموض معانيها. ومن العبارات التي أثارت بعض الجدل، ما يمكن تعريبه على الوجه الآتي: "إن فحص المرض يشبه (عد أو قياس) مرض شخص لمعرفة وظيفة قلبة". وقد رجح بريستد أن هذا التعليق يشير إلى عد النبض، إلا أن هذا فرض لا يزال الشك يحوم حوله، إذ أن النبض لا يمكن عده دون الاستعانة بأجهزة دقيقة لقياس الوقت، ومثل تلك الأجهزة لم يعم استعمالها قبل المملكة الحديثة، ولم يكشف منه إلا مزولتان مائيتان من عهد تحوتمس الثالث ومربتاح. ولكن إذا صح فرض بريستد فإن صاحب اللفافة يكون قد سبق أبقراط وديموقريط - (القرن

الخامس قبل الميلاد) اللذين لم يذكرا عد النبض – بألفي سنة أو تزيد؛ وقد لا يكون من مجرد الصدفة أن أول من عده هو هيروفيلوس (٣٠٠ ق.م) الذي زاول مهنته في الإسكندرية (بمصر) حيث كانت علاقة القلب بالنبض معروفة منذ ٢٥٠٠ سنة، وكانت المزاول المسائية معروفة منذ زمن، بل يمكن التخيل – إذا فرض أن عد النبض ورد ذكره فعلا في "كتاب الأطباء السري، (انظر لفافة إبرس) – أنه كان سرا من الأسرار التي أخفاها العلماء المصريون عن أبقراط وغيره من الزوار الإغريق. ونعتمد في تقديمنا ذلك المؤلف على هذا النحو بريستد الذي قارن القسم الوارد عن النبض في لفافة إدوين سميث بنظيره في لفافة إبرس الذي كان عنوانه "بدء كتاب الأطباء السري"، وقرر أن المؤلفين نقلا عن أصل واحد، وأن لفافته كانت تستهل – قبل أن يأتي بها الدهر ما أتى – بالعنوان نفسه وهو: "كتاب الأطباء السري".

٤– عدم الاكتفاء بدقة الوصف المحلي للإصابة، بل الربط بين ظواهر متلازمة في أجزاء متباعدة من الجسم تكون منها – أول مرة في التاريخ – صور إكلينيكية مميزة.. وقد قيل إن جالينوس هو أول طبيب حقق هذا التقدم في التفكير الطبي، إلا أن طبيبنا العبقري سبقه بسبعة عشر قرناً. ومن أمثلة تلك المتلازمات التي وصفها إصابات العمود الفقري المصحوبة بالشلل، والتبول غير الإرادي، والاستمناء مع تخصيص الاستمناء بإصابة فقرات الرقبة الوسطى، والربط بين كسور عظمة الصدغ والصمم، وبين إصابة ناحية من المخ والشلل النصفي. وتدل تلك الملاحظات على معرفة أمرين مهمين، هما أن ناحية الإصابة تحدد ناحية الشلل وأن النخاع

الشوكي والمخ يسيطران على حركة الجسم، ولو أن الصلة بين المخ والنخاع أو بين الجهاز العصبي والأعصاب – بصفتها امتداداً له – لم ترد إلا في القرن الرابع قبل الميلاد في كتابات إغريق الإسكندر (إيزستراتس وهيروفلوس) وأن اللفافة قالت: إن الشلل يحدث على ناحية الإصابة نفسها، وهو عكس المعتاد، ولعل ما نسميه برد الفعل (countercoup) هو ما خدع المؤلف في هذا الصدد.

٥- اهتمامه بتتبع أطوار المرض للوصول إلى التشخيص وللتكهن بالمآل. ونذكر على سبيل المثال حالة رأى البعض فيها التيتانوس، ورجح الأستاذ الدكتور كامل حسين أنها الالتهاب السحائي، وقسم وصفها إلى فحص أول وفحص ثان وفحص ثالث، فحلل عوارض كل مرحلة من المراحل الثلاث، وناقش ما يمكن عمله لكل منها. وما يمكن استنتاجه من حيث سير المرض وماله من تطور العوارض بين فحص وآخر.

٦- الانتقال من التشخيص إلى التكهن بالمآل؛ فيقول مثلا إن مآل كسور الجمجمة سيء إذا كان المخ لا ينبض تحت اليد أو إذا كان العظم منخفضاً داخل المخ، أو إذا لوحظ تصلب في الرقبة، أو نزف من الأنف أو الأذن أو تحت الملتحمة. وكلها علامات حدوث مضاعفات معروفة تزيد فعلا من خطورة الإصابة.

٧- دقة وصف التحريكات العلاجية.. ومن أهم الأمثلة لذلك وصف كيفية إعادة جزئي الترقوة المكسورة إلى محلها. وهذه هي الطريقة التي قال عنها عميد المختصين الأستاذ الدكتور مُحَمَّد كامل حسين أن العلم الحديث لم

يصل إلى أحسن منها، وأنها تؤدي إلى درجة تامة في الشفاء. وإليك هذا الوصف: "إذا فحصت رجلاً مصابا بكسر في الترقوة، ووجدت بها قصراً، فقل "هذا مرض سأعالجه"، وألقه على ظهره، ثم ضع بين اللوحين وسادة حتى يبتعد جزء الترقوة ويرجع المكسور إلى موضعه. وبعد ذلك ثبت وسادة من الكتان على الجانب الداخلي من ذراعه وضمده بمرهم "الأيمرو" ثم في الأيام التالية بالعسل.

وهناك وصفة أخرى لرد فك مخلوع وهي الطريقة التي وصفها الإغريق بعد تاريخ كتابة اللفافة بعشرة قرون، وهي الطريقة الموصوفة أيضا في أحدث مؤلفات الجراحة.

٨- تباين المعدات الجراحية التي كان يستعين بها المؤلف في العلاج، منها:

(1) قماش نباتي يطلى بالدواء قبل وضعه على الجسم، ويوضع كما هو على الجروح لامتصاص الإفرازات والدم

(2) فتائل أو حشو أو سدادات من الكتان تستخدم إما مشبعة بعقار، وإما نقية للتنظيف. أو بصفة جبائر صغيرة لحفظ شكل الأنف إذا كسرت عظمته.

(3) الأربطة: وكان يصنعها المحنطون، علي أن ممارسة التحنيط قد أكسبت المصريين مهارة فائقة في ربطها.

(4) الأربطة اللصاقة: وكانت توضع منها قطعتان مستعرضتان على الجرح لضم حافتيه.

(5) الخياطة: وقد ذكرت ست مرات.

(6) الكي، وكان يجرى بالمخراز الناري (مثقاب توليد النار) وهو جهاز يسخن به طرف قطعه مدببة من الخشب يحكها في ثقب من قطعة خشب أخرى، وقد أوصت بردية إبرس كذلك باستعمال مفصد محمي.

(7) الجبائر، وهي إما قطع من الخشب ملفوف عليها الكتان توضع في الفم لحفظه مفتوحا حتى تتيسر تغذية المريض إذا تعذر عليه فتح فمه، وأما الجبائر من الخشب المبطن بالكتان، أو لفافات صلبة من الكتان دون سند من الخشب.

(8) وأخيرا حوامل من الطوب المجفف في الشمس (يلاحظ استعمال كلمة "أدوب" التي أخذت منها لفظ الطوب) وأوصى المؤلف بوضعها تحت ذراعي المريض الذي لا تسمح له حالته بالاستلقاء علي ظهره. ويرجح بريستد أنها كانت تصاغ على شكل جسم المريض لنريحه، كما كانت تصاغ الأربطة المقواة حول المومياوات .

وقد حار علماء المصريات في شخصية مؤلف هذه اللفافة: رجح بريستد أنها قد تكون من تأليف إيمحوتب ذاته، ولم يوافقه على هذا الأستاذ الدكتور مُحَمَّد كامل حسين لأسباب تحليلية دقيقة، أهمها أنه يبدو بعيداً كل البعد – في التفكير ومعاملته المرضى – عن الكهنة أو عمن تلقوا العلوم منهم ودرجوا على أسلوبهم في التفكير. وأنكر أيضاً أنه كان جراحاً حربياً

كما قال البعض الآخر، حيث إن جروح الحرب لكثرتها – ولظروف الهجوم والدفاع والحركات الحربية – لا تدع وقتا كافيا لدراسة كل حالة الدراسة التفصيلية التي تنم عنها اللفافة.

ثم لاحظ الدكتور مُحَمَّد كامل حسين أن الإصابات التي تناولتها اللفافة من النوع الذي يحدث من سقوط من ارتفاع.. وفي مثل بناء الهرم الأكبر الذي شيد في ثلاثين سنة تحدث إصابات كثيرة من هذا النوع، متباعدة الزمن تباعداً يسمح لمتولي أمرها بأن يدرسها دراسة وافية، وأن يتأمل فيها تأملا كافيا، فرجَّح أن المؤلف هو عامل من أولئك الذين شاركوا في تشييد الهرم الذي استغرق بناؤه وقتا طويلا، عامل أمتاز بعبقرية نادرة وبحبه لجاره، وبقوة ملاحظة ثاقبة، بلغته ما وصل إليه من شأن.

***

إلا أن ما سبق قوله عن اللفافة لا يخص غير قسم منها، إذ أنها مكونة من ثلاثة أقسام، أهمها وأطولها هو ذلك الذي وصفناه وسمي بـ (كتاب الجروح)، وهو الذي قال عنه بريستد: إنه قد أحدث بدون شك ضجة كبرى بين طلبة تاريخ الطب اليوم عندما ترجم ونشر.

أما ظهر تلك اللفافة فجزء منها مكتوب بمثل خط صفحتها الأولى وجزء بخط آخر، وهو يحوي ٨ تعاويذ "لإبعاد هواء الطاعون السنوي"، ووصفة قال عنها العلماء خطأ إنها سحرية، وتعني بإعادة الشباب إلى الشيوخ؛ ولكن التدقيق في قراءتها يبين أنها لا تزيد على كونها وصف لكيفية استخراج زيت الحلبة واستعمالة دهاناً للشيوخ لإزالة الصلع

والنمش وكل علامات الشيخوخة التي تشوب الجلد، ومن العجيب أن الجمهور في مصر يستعمل الحلبة لاستعادة القوى.

وسأذكر أولى تلك الوصفات لأظهر التباين بينها وبين الجزء الأول، وهي خاصة بإبعاد هواء الطاعون السنوي (أو هواء سنة الطاعون) وفيها – مع طابعها الروحاني الطاهر – أول ذكر لأرياح تحمل الأمراض: "تعويذة تتلى على ريشتي رخم توضعان على شخص لحمايته أينما ذهب. إنها حماية ضد السنة، تطرد المرض في سنة الوباء: "يا حامل اللهب في وجهه! يا سيد الأفق! حدث صاحب دار همسوت الذي يجعل أوزيريس يزدهر، يا نخبت، يا رافعة السماء من أجل أبيها، أحضري الريشتين واربطيهما حولي لأعيش".... وما إلى هذا من توسلات غامضة المعني مليئة بالاشارات إلى الأساطير.

ولا شك في أن تلك الأقسام الثلاثة – التي تختلف في اللغة والجوهر والروح والخط – استنسخت من أصول متباينة، لم تجمعها على نفس البردية إلا الصدف التي وضعتها أمام الكاتب على هذا الترتيب، شأنها في ذلك شأن اللفافات الطبية قاطبة. ولنا أن نأسف إذ أن القسم الجراحي لم يأت كاملا ليرشدنا إلى كل ما كان قد حققه جراحو ذلك العهد..

الجراحة والختان

ما الذي نعرفه عن جراحة المصريين عدا ما جاء بلفافة أدوين سميث؟

قال بعضهم مازحًا: إنه لا يقدر مؤلفا بما ورد فيه، وإنما بقدر ما حذف منه، أي بقدر ما اقتضي تأليفه من دراسات وتأملات لم يذكر تفصيلها في المؤلف..

نقتبس هذا القول فنقول إن أهمية لفافة أدوين سميث بالنسبة لنا هي بقدر المعلومات التي تكدست حتما قبل أن تظهر منها تلك اللفافة، كما تبرز الجزر الصغيرة من قمم الأقطار الغريقة، وتلك الجزر التي وصلت إلى أبصارنا قليلة، فإننا مثلا لم نعثر إلى الآن على مؤلفات علمية تصف عمليات جراحية كما كانت تجرى، ولم تقدم لنا اللفافات الأخرى إلا معلومات ضئيلة بالنسبة للجراحة. وبقية معلوماتنا مستمدة من بعض النقوش التي وجدت على جدران المعابد والمقابر، ومن نتائج الكشف على الجثث والمومياوات.

وتلقي تلك النقوش ضوءاً قويا على بعض نواحي الجراحة، وإن كانت تضع أمامنا ألغازاً ليس من السهل حلها. وأول سؤال يطرأ على البال هو: ما الغرض الذي كان يرمي إليه من نقش تلك المعلومات على جدران مقابر لم يكن أصحابها من الأطباء؟

أكانت تمثل وقائع من ماضي الموتى؟ أكان يرمي إلى إحيائها بالسحر لضمان إجرائها للمتوفي إذا احتاج إليها في الاخرة؟ فهل كان الغرض من تمثيل الختان في مقبرة "عنخ ماحور" التأكد من إجرائه للأولاد الذين قد يرزقهم بعد وفاته؟ ما هذه الفروض إلا تخيلات تافهة الأسس قدمت إجابة للأسئلة التي لا تزال مطروحة للبحث إلى اليوم، وإني لا أستبعد – مستعينا بكثير من الخيال وبدون أي سند علمي – أن تكون بعض هذه النقوش أو الصور المخفية في ظلام المعابد لوحات تدريسية تكمل تعاليم الكتب وتصحب التلقين الشفوي في السراديب السرية بالمعابد... شأنها شأن النقوش أو الصور اللاهوتية التي كانت تصور بشكل حي أسرار الدين للمريدين من التلاميذ.

وأهم تلك النقوش أو الصور، النقشان الموجودان في سقارة في مقبرة "عنخ ماحور" اللذان يمثلان عملية الختان.. نرى في النقش الأيمن منهما شخصا واقفا، وقد جلس على الأرض أمامه الجراح – الذي ذكرت قباله عبارة "الكاهن المختن" – ممسكا بيده اليمنى آلة مستطيلة في وضع عمودي على العضو وفي اتجاه طوله.. ونلاحظ أن لا تبدو على أسارير على وجه المختن ما ينم عن تألمه. أما الجزء الأيسر فيظهر فيه الجراح ممسكاً بآلة أو بشيء آخر بيضي الشكل يلمس به العضو التناسلي الذي يسنده بيده اليسرى. وفي هذا الجزء تدل ملامح المريض على شعوره بالألم. ونلاحظ كذلك وجود مساعد الجراح خلف المريض وقد أمسك بذراعيه على ارتفاع وجهه في قوة وعنف.. ونقرأ قول الطبيب: "أمسكه كيلا يقع" والإجابة: "سأفعل وفق إشارتك."

وبديهي أن تكون اللوحة الأولى لإيضاح التحضير أو التخدير للعملية؛ إذ يقول الطبيب: "هذا الدهان يجعله مقبولا"…. ولا تنم ملامح المريض على أي ألم.. وأن تكون اللوحة الثانية لتبين الطور الثاني من العملية وهو إجراء الجراحة نفسها. وقد فسر "بيلي" وضع الآلة "المستطيلة عمودية على العضو" بأن العملية كانت تجرى على مرحلتين: الأولى إحداث قطع مستطيل من منتصف العضو إلى آخر القلفة، والثانية قطع دائري في العضو يبدأ عند القطع الأول.

ولقب الختان يلفت النظر من غير شك، فقد لقب بـ "الكاهن المختن" وربما يدل هذا على أن العملية التي يقوم بإجرائها لا تدخل ضمن اختصاصات الجرَّاح العادي.

وهناك نقش آخر لعملية الختان في الكرنك يظهر فيه الجرَّاح وهو يضع الآلة القاطعة بيده اليمنى على العضو التناسلي فى مستوى الكمرة – بعد ربط العضو برباط دائري على قاعدته – ويفتح فتحة القلفة بأصابع يده اليسرى. وهذا من غير شك لتجنب جرح العضو عند القطع، ولكن الآلة القاطعة تختلف عن الرسم الأول فهي أشبه بمشرط أو سكين مكشوط الحد.

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن الختان لم يكن يجري في الماضي بالشكل المتبع الآن، أي أنه لم يكن استئصالا كاملا للقلفة، وإنما كان مجرد قطع مستطيل يجري على ظهرها للاكتفاء بفتحها.

وقد كان المصريون – حسبما روي لهيرودوت – أول من زاولوا الختان، وتبعهم في ذلك الآشوريون والكوشيون (الأحباش).. أما غيرهم من الشعوب فقد نقلوه عنهم. وكانت عملية الختان تجرى للأولاد في المعابد غالبا بين سن السادسة والثانية عشر، ومع ذلك فإنها لم تكن فرضا على الشعب كما صارت فيما بعد عند اليهود أو سنة عند المسلمين، إذ أننا لا نجد لها أثرا في كثير من النقوش.

ومع أنه لا يوجد مجال للشك في معنى النقشين المذكورين من مقبرة "عنخ ماحرو" فإن المقبرة نفسها تحوي نقشين آخرين يتركان مجالا كبيرا للتخيل في التفسير، الأمر الذي لا يسمح بالجزم بما يمثلانه، ويبين هذا النقش أشخاصاً يعنون بقدمي ويدي شخص آخر.. وهذا الأخير ممسك ذراعه بيد منقبضة. وقد دون الفنان الذي قام بالنقش عبارة في أسفل كل من اللوحتين، الأولى: "انته واتركني وشأني". والأخرى: "لا تسبب لي كل هذا الألم". ورأى البعض في النقشين صورة للتدليك و"المانوكور" و"البديكور"، والبعض الآخر عمليات جراحية.

وهناك نقشان متشابهان، مع أن الأول خاص بالملك "أحا" ووجد في أبيدوس (العرابة المدفونة)، وأن الثاني خاص بالملك "دجير" ووجد في سقارة. والاثنان يرجعان إلى أول عصر الأسر ويتصلان بأعياد اليوبيل الملكي "الحب سيد" التي كان الغرض من طقوسها إعادة الحياة إلى الفرعون الكهل وعن طريقه إلى الدولة بأجمعها.

ويمثل كل من النقشين شخصا جالسا يصوب آلة رفيعة مستطيلة يمسكها من طرفها نحو رقبة شخص آخر، أما هذا الشخص الآخر فهو ساجد منحن إلى الوراء وذراعاه مربوطتان خلفه، وقد فسرهما بتري **(petrie)**وغيره بأنهما يمثلان ذبح الأسرى أو القرابين البشرية في حفلات جناز الملك.. أما فيكانتيف **(Vikentieff)** فقد قال إن هذين النقشين – بما أنهما متصلان بمراسيم " الحب سيد" – يرمزان إلى إعادة القوى الحيوية إلى الملك المسن، وبالتالي إلى الدولة، وقد شبه فيهما الشعب بمريض قرب من الاختناق، وشبه طقوس اليوبيل بعملية إعادة النفس بفتح القصبة الهوائية (الكترا كيوتومي).. ويستند فبكانتيف في ذلك إلى وضع الشخصين، وطريقة مسك الآلة المدببة، اللذين هما في نظره يمثلان ما يتوقعه الإنسان في حالة إجراء عملية جراحية، ولا يشبهان وضع القاتل الغادر أو محنط الجثة، حيث إن الجثة ما كانت وضعت في هذا الموضع الساجد... وقد أيد نظريته بحجج لفظية فحواها أن الفعل الدال على التنفس خصصه الكاتب في هذه اللوحة بالمشرط، لا بعلامة الأنف أو القلع كما هو المعتاد، مما يوحي بأن تلك اللفظة تعبر عن نوع خاص من التنفس، هو التنفس بشق القصبة. وقد أيد الأستاذ الدكتور مُحَمَّد كامل حسين وجهة نظر فيكانتيف وأضاف أن المشرط الخاص الذي على شكل المعين والذي يسمح بتغير اتجاه القطع كما هو واجب في تلك العملية.

من العمليات الأخرى التي قيل إن قدماء المصريين كانوا يجرونهما عملية "التربنة" ولم تذكر لفافة أدوين سميث سوي عبارة خاصة برفع قطع العظم المنخفضة في المخ دون ذكر التربنة.

والدليل الوحيد على إجرائها هو استكشاف جمجمتين إحداهما من العصور السابقة لمينا موحد الشطرين، والأخرى من عهد الأسرة الثانية عشر، تحمل كل منهما ثقبا مستديرا تدل التغييرات الحيوية التي شوهدت على حافته على أنه أجري قبل الوفاة بوقت كاف.

ومن المحتمل أن إجراء التربنة – إذا صح إجراؤها –كان في أول الأمر متصلا بالسحر، وأن الغرض منه كان طرد الارواح الشريرة من ذهن المريض.

وقد وصل إلينا تصوير جميل علي جدار معبد كوم إمبو يمثل جراحاً أمامه الآت جراحية عديدة والمتاحف تزخر بالآت يظن أنها كانت حقيقة مستعملة في الجراحة؛ إلا أنه لا يمكن تحديد وجه استعمالها بالضبط أو حتى التأكد من أنها كانت حقيقة مستعملة في الجراحة، ومن هذه الالآت المخالب والمقصات والمشارط والإبر.. إلخ.

علاج الجروح:

وإذا تتبعنا طريقة علاجهم للجروح وجدنا أنهم استعملوا طرائق لا تختلف في مبادئها عن أحدث الطرق، اللهم إلا إذا استثنينا استعمال العقاقير الجديدة (المضادة للميكروبات مثل البنسلين والسلفا وما إليها) التي لم يكن لهم إليها من سبيل (على أنهم مع هذا استعملوا المعطنات في العلاج كما سنرى في باب العلاج).. نراهم يعالجون الجروح النظيفة في أول يوم بالخياطة والأربطة اللصاقة، وقد وجدت مومياء تؤكد ذلك، إذ أن بها جرحا شفي يحمل أثار خياطة ظاهرة.

أما الجروح الأخرى فكان يوضع عليها لحم طري، وقد لا تبدو لنا هذه الطريقة غريبة إذا تأملنا في أنها أنجح وسيلة لوقف النزف، بل إنها الطريقة الوحيدة في بعض الحالات، خصوصا إذا كان هذا النزف من نوع الرشح الذي لا يصدر من شريان مقطوع، لما يحتويه اللحم من المواد "المجلطة" التي تسهم في تجلط الدم الطبيعي. وقد استعملت هذه الوسيلة في العصر الحديث في جراحات المخ، وأصبحت مألوفة عند الجراحين، حيت لا يمكن كشف الشريان المقطوع أو ربطه.

أما بعد أول يوم فكانت الجروح تضمد بالأعشاب القابضة والعسل. والعسل أيضا له فوائد أكيدة، فإنه محلول مركز، يستدر من حواف الجروح – حسب قوانين التناضج (أوزوموز) – مصلا مليئاً بالمواد الشافية المضادة للعدوى.

الكسور:

وجدت لها آثار كثيرة في الجثث، وذلك لأن العظام لا تتحلل. وكانت حالات الكسر في عظم الفخذ كثيرة، وكانت تشفى تاركة تضخما حول محل الالتئام وقصرا في العظم، أم الكسور العضد فكانت نتائجها أحسن من حيث استقامة العضو ووظيفته، بسبب ضعف القوى العضلية الجاذبة لطرفي الكسر. وقد وجدت حالات عدة لكسر الزند وحدة. والمرجح أن تكون نتيجة لضربة مباشرة على العضد المرفوع للدفاع عن النفس (إليوت سميث)، وكانت تلك الكسور الفردية سهلة الشفاء.

ولقد عرفت الجبائر واستعملت من قبل عهد الفراعنة، وعثر على كثير منها في المقابر الأسرة الخامسة، وكانت تتكون عادة من قطع الخشب أو القشرة أو الكتان تتصل كل منها بالأخرى بوساطة أربطة مبطنة بالكتان، وكان العضو يحاط بها كالأسطوانة. وكانوا يراعون في ربطها أن تشمل المفصلين أعلى الكسر وأسفله. ولم يعرف المصريون مزايا الشد التي فطن إليها الاغريق بعدهم، إلا أنهم كانوا يردون الكسور والخلوع في مهارة فائقة، كما هو ظاهر من صورة عمارة إيبي ومن الإرشادات الواردة في لفافة إدوين سميث الخاصة بكسور الترقوة والأنف وخلع عظمة الفك. ولكن الكسور المفتوحة لم تعالج بهذا القدر من النجاح، فإن معظم ما وجد في الجثث لم يلاحظ فيه أي تغيير حيوي.

وكانت الحروق تعالج بالعسل والزيوت والمواد الدهنية مصحوبة بالتعاويذ، كالحوار بين إيزيس والرسول الذي ذكرناه في باب السحر.

الأورام:

ودرست في لفافة إبرس التي جاء فيها وصف الأورام الدهنية والفتق والتمدد الشرياني، والتي أوصت عند فحصها لجسمها لمعرفة ما إذا كانت تتموج، فإذا كانت متموجة وجب حسبانها سائلة أو دهنية. وقد جاء بها وصف يتفق والجمره الخبيثة أو السرطان؛ ومنها ما هو أبشع، وهي التي تظهر منها البثرات ويتلون الجلد وترتسم الرسوم على سطحها وتحدث آلاما شديدة، فقُل عنها: أنه ورم الإله خوتسو، ولا تفعل شيئا.

وقد قيل إن المصريين كانوا يعرفون التخدير ويستعملون لهذا الغرض حجر منف، وهو نوع من الرخام مخلوط بالخل. ومثل هذا المزيج يتصاعد منه غاز حمض الكاربونيك الذي له خواص تخديرية محلية، أما إنهم كانوا يرقعون الأعضاء بأعضاء أشخاص آخرين – كما قال البعض – فهذا خيال لا يستند إلى أي دليل.

العلاج

الآن وقد اطلع القارئ على كثير من أساليب علاج أسلافنا يحسن أن نستطرد فنلقي نظرة عامة على تلك الطرائق. ولنبدأ بالعقاقير، فلعل استعمالها يعتبر مثلا طبيا لازدواج الاتجاه الطبي المصري تحت تأثير النظريات الدينية من جهة، والنزعة التجريبية التي امتاز بها المصريون من جهة أخرى..

كانت معلومات الأطباء والكهنة ومن إليهم من المتطببين في الكيمياء متقدمة. وقد ورثنا منهم أسماء مواد ونباتات عديدة وصلت إلينا كما هي، منها نبات (بن) الذي يستخرج منه زيت البان، وكلمة **gum** أي الصمغ المأخوذة من (كميت) التي تحورت في اللغة القبطية والإغريقية إلى كومي.. وقد قيل أن كلمة (أمونيا: النوشادر) أصلها من آمون (أي ملح واحة آمون أو سيوة)، بل إن كلمة (كيمياء) أصلها (كمت) وهو اسم مصر في هذا الزمن.

وكانت تلك المعلومات تيسر لهم تجهيز المراهم والأقراص والأشربة وغيرها من الأدوية، وكان تركيبها مرتبطا دائما بالدين يجري في معمل خاص في المعبد اسمه (أسيت) طبقا لطرق سرية وطقوس جامدة ونسب معينة،

وتقدر بالكيل لا بالوزن. وقد جاء ذكر ما يقرب عن ٥٠٠ نوع من المفردات، منها:

١ـ المواد المعدنية:

المواد المعدنية مثل الحجارة الكريمة (وبخاصة الفيروز) والذهب، والفضة (للطلاسم والأحجبة)، والشب وأملاح انتموان وكاربونات النوشادر والجير وكاربونات الجير وصدأ النحاس (الزنجار (verdigris وأملاح الحديد والمانيزيا وسلفات الزئبق وأملاح الرصاص والبوتاس والصودا والنطرون.

وإذا استثنينا تلك الأصناف التي استعملت لغلائها كالذهب والحجارة الكريمة (التي ما يزال الهنود والفلكيون يعزون إليها قيما خفية ترتبط بالافلاك) فإن أغلب تلك المواد فعالة ومستعملة إلى اليوم، فالشب قابض وموقف للنزيف، وكاربونات الجير معادل للأحماض وملطف للجلد، وصدأ النحاس يعالج به الرمد، والمانيزيا مليئة، وأملاح الرصاص مرطبة للالتهابات السطحية وتستعمل في علاج الكدم وما إليه.

٢ـ النباتات:

ولعلها تكون أهم جزء من أقرابازينهم. وقد عرفت مداولاتها أولا من النقوش (حيث رسمت – في بعض الحالات – بجوار أسمائها) ومن المقابر حيث عثر على بعضها، مثل الخردل والخشخاش، ومن النصوص القبطية، ولكن الكثير منها لا يزال غامض المعنى وخصوصاً بعض الأسماء كانت سرية. ومن الأنواع المعروفة: السنط والأبسنت (وهو طارد للأرياح ومنبه

للقلب)، ورجل الذئب **Acanthus mollus** والصبر والسنامكة (ولها فوائد ملينة محققة) واللوز (ملطف وملين) والشبت والأنيسون والبابونك والكمون وحب الهال (الحبهان) والنعناع وجوزة الطيب وحبة البركة (وكلها طاردة للأرياح وهاضمة) وشعر الجن والخروب (كان يستعمل لتقوية الباه وطرد الديدان وتحلية الأدوية) والقرطم والثثم (وهو ما يزال يستعمل في ريفنا وفي السودان لعلاج الرمد) والكولشيك (وهو أنجح وأسرع علاج لنوبة النقرس)، وعدة أنواع من النبات من فصيلة القرع (والكثير منها طارد للديدان أو ملين) والهندباء والحلبة (وصفت لإزالة علامات الشيخوخة) والتين والعرعر (وهو مدر ومطهر للبول) والجنطيان (منبه للشهية وهاضم) والرمان (قشره كان ولا يزال يستعمل لطرد الديدان) والسكران (مفيد لعلاج المغص وحصي الكلى وتقلصات العضلات والأمعاء) والحشيش واللفاح (مسكنان) والكتان والزئبق والخردل والمر والعفص والزعفران، وبصل العنصل (مقوي لعضلة القلب ومدر للبول والبولينا) والأشماع والاشتراك (لبني الرهبان) والتربنتين لطرد الديدان (وهو مفيد وكان شائع الاستعمال حتى وقت قريب) وغيرها. وفي العقاقير النباتية ورد عن فوائد الخروع باب كامل في لفافة إبرس، فقد جاء فيها: "لمعرفة ما يصنع بنبات الخروع (حسبما وجدنا في الكتابات العتيقة وهو شيء يجدي استعماله)، إذا صحنت جذوره في ماء ووضعتها على رأس مريض فإنه يبرأ فورا كالسليم. وإذا مضغ المصاب بالإسهال قليلا من بذره وتناول معه الجعة لطرد المرض من باطنه. وإلى هذا فإن شعر السيدات ينمو تحت تأثير البذور: فهي تصحن وتمزج بالزيت ويدهن

الشعر بها، ثم أن الزيت في بذرتها يستعمل لدهان من يشكو من الأنف من رائحة كرهة، علاج ممتاز حقا جرب عدة مرات.

المواد الحيوانية:

العسل ولبن البقرة والحمارة والمعز والمرأة، ولقد اعتبروا في جميع عصورهم أن لبن النساء عامة أرقى من لبن الحيوان، ولكنهم كانوا يحلون في المرتبة الأولى لبن المرأة التي أنجبت طفلا ذكراً، وبعدهم فإن أبقراط أوصى أيضاً باستعماله كما أوصى الأقباط وعرب مصر من بعده.

ولما كانوا يعتبرون هذا اللبن سائلاً ثميناً حرصوا عليه ووضعوه في أوعية مصنوعة على شكل امرأة تحمل علي ركبتيها ولداً وقرناً كالذي كان يستعمل للحقن الشرجية أو المهبلية، وقد استنتج علماء الآثار من النحافة الشديدة الظاهرة في أسفل جسم هذا الطفل أنه يمثل الطفل الهزيل الذي رزقت به إيزيس من أوزيريس والذي كان بالغ الضعف لأن أوزيريس أتى زوجته بعد وفاته.

ومن المواد الحيوانية الأخرى كبد الثور والعجل والخنزير، وكان يستعمل لشفاء غشوة الليل، وقد دلت البحوث الحديثة أن غشوة الليل ناشئة في أغلب الأحوال من نقص في فيتامين (أ) الذي يتوافر في هذه الأنواع من الكبد. ومن الأدوية التي استعملت أيضا لعلاج غشوة الليل – وقد تبعهم فى ذلك أطباء الأقباط – روث الوطواط وبوله، وقد قال (ليفبر) دون أن يذكر مرجعه: إنه ظهر من التحليل أن روث الوطواط يحوي كميات كبيرة من فيتامين (أ) ولم تنته قائمة علاجاتهم الحيوانية عند

هذا، بل استعلموا أيضًا بعض الأسماك وصفراءها ومخ الحيوانات وشحمها وشعرها وإفرازتها وفضلتها؛ وإذا كان الكثير من تللك المواد لة فوائد علاجية أكيدة، فإن هناك مئات الأصناف التى يبدو لنا استعمالها غريبًا أو سخيفًا. أذكر منها على سبيل المثال: شعر التيس وسن الحمار وروث فرس النهر وغسالة الغسالات، وقد عدت من بين تلك الأصناف البقول المعطنة التى وصفت مع الدقيق لعلاج الإكزيما مع الدقيق والقشرة التي تغطي خشب السفن المغمورة لرفع الرحم إلى محله .

ولعل المصريين القدامى فطنوا إلى أن تللك المتعطنات تحوي الكثير من المواد المطهرة الممتازة، فما هي في الحقيقة إلا مزارع من الفطريات، وهي الفصيلة النباتية التى استخرج منها (فلمنج) وأتباعه، البنسلين ثم الأستروبتوميسين والتراميسين وسائر أنواع المضادات الحيوية التى يعدها الطب أبهر تقدم حققه القرن العشرون، وقد أوصى الإغريق وكذلك أطباء القرون الوسطى، باستعمال المتعطنات.

وقد لا يخلو من المغزى أن تلك العلاجات كانت مخصصة لأمراض تنتج من التلوث بالميكروبات التي قد تبديها تلك الفطريات. ولا يتحتم علينا – لمجرد أن باستور لم يكن قد اكتشف الميكروبات بعد – أن نحكم على تلك الحكمة الشعبية بأنها كانت من ضروب السحر والفولكلور، وإنما يجب أن نسلم بأنها على الأغلب مبنية على التجربة ليس إلا.

وبالمثل فإننا إذا قلنا . عن كل ما يبدو غريباً في تلك الوصفات . إنه مخيف أو خيالي أو سحري، كان هذا حكمًا على المدلول الظاهر للأسماء

الواردة، ولعل حكمنا هذا جائز إذ أن بعض تلك المدلولات ليست هي المعنية بالذات، فلا يعقل مثلا أن يدخل رأس الحمار فى مرهم أو أن تستعمل ريشة الإله تحوت أو أن يذاب سن الحمار فى الماء.. وكل هذا ورد، ولذا وجب علينا أن نتأمل أولًا لعل تلك الألفاظ أسماءً سرية للعقاقير لا يُعرف مدلولها إلا العارفون، أو أوصاف شعرية أو تشبيهية لبعض النباتات الطبية. وكلا الفرضين له ما يبرره، فمن المعروف أن بعض المواد كانت لها أسماء سرية حتى القرون الوُسطى مثل الـ **green dragon** لسلفات النحاس وغيرها من الأسماء التى استعملها الكيماويون الذين حاولوا تحويل المعادن إلى الذهب والتي لم يكشفوا مدلولاتها إلا لمعشرهم كشفآ تدريجيًا بعد كل خطوة من خطوات قبولهم فى طائفتهم السرية.

وهناك من جهة أخرى مفردات عدة، لا تزال تحمل أسماء خيالية أو تشبيهية مثل **acanthus mollus**: رجل الذئب، وشوك الغنم **abulition avicennae** وكف النسر **scolopendriun** (العقربان أو سقولوفندريون) وتراب اليابان **catechu** وفسي كلاب **chenopodium morali**.. إلخ، وإننا إذا ما قرأنا ما كتب عن استعمالها فلا يخطر أبدا فى أذهاننا أن المقصود بها حقا رجل ذئب مفترس، أو كف نسر يطير أو تراب من أرض اليابان أو ريح من خلف الكلاب.

ولذا يجدر بنا أن نخفف من حكمنا وأن نسلم بأن بعض تلك الألفاظ تسميات خيالية أو سرية لمواد علاجية معقولة وفعالة. ومن أمثال تلك الألفاظ ذيل الفأر وأذن الضبع ولسان البركة والقذارة التى تتجمع

تحت أظافر المرضى وفضلات الذباب على الجدران وجلد من عند صانع الأحذية وماء غسالة الغسالين .

ولقد توصل اللغويون إلى فك بعض تلك الألغاز التي زادت في صعوبة تفسير النصوص، فقد عرفوا مثلا أن الأبسنت كان اسمه قلب الرحم ونبات الكروكوس هو دم هرقل... إلخ.

وكان الطبيب يعد الأدوية بنفسه على شكل شراب أو مغلي أو منقوع أو حبوب أو مسحوق أو لعوق أو لبخة أو لزقة أو قطرة أو مرهم أو تبخير أو لبوس أو غسول شرجى أو مهبلي، حتى إن الكتابة الهيروغليفية للطبيب كانت مكونة من المفصد والهاون. ولم يعتادوا كتابة الروشتات (التذاكر) للمرضى، والغالب أن قطع الخزف **ostraca**التي وصفها جونكير والمكتوب عليها وصفات أدوية كانت فى الحقيقة مذكرات يدونها الطبيب بجانب المريض لتذكره فيما بعد بنوع الدواء الذى عليه أن يركبه عند عودته إلى منزله.

فروع التخصص

بقيت كلمة عن الولادة والرمد وبعض فروع التخصص – وأقول التخصص عن عمد – ذلك (إن صدق بعض المؤرخين أمثال هيرودوت) أنه تعدى المعقول أو المتوقع، حتى إن المصريين منذ ٥٠٠٠ سنة برزوا فى ذلك معاصرينا عبر البحار. وقد قال هيرودوت: إن مصر وطن الإخصائيين، وإن كل طبيب فيها يقتصر علاجه على نوع واحد من الأمراض ولا يعالج سواه، فبعضهم يعالج العيون، والبعض يعالج الإسنان أو البطن.. هذا ولو

أن بعض الأطباء ادعى التخصص فى علاج جميع الأمراض مثل (إيري) الذي ذكر على شاهد قبره أنه طبيب وعميد أطباء البلاط ورمدي وإخصائي المعدة والأمعاء والشرج.

ومما يؤكد ما رواه هيرودوت ما ورد من الألقاب على مقابر كبار الأطباء، ومن تلك: لقبان أثارا الدهشة والحيرة وكثيرا من الجدل حول تفسيرهما. أولهما التسمية الغريبة (راعي شرج فرعون)! هل ضاق نطاق التخصص حتى تحدد إلى تلك الرقعة الضئيلة من الجسم؟ أم هل كان هذا الراعي مجرد مساعد يوكل إليه تركيب الحقنة الشرجية؟.. أم أنه كان إخصائيا في الأمراض المعوية عامة كما جاء فى كتابة إيري؟ ولا يقل اللقب الثاني غرابة من الأول فهو (إخصائي في الأمراض المجهولة) وقد فسر جزافا بأنة يعبر عن أن صاحبه إخصائي في الأمراض الباطنة أي ذات الأسباب المستخفية. وقد ضاق بعضهم بذلك فرجح أن بعض هؤلاء الإخصائيين فى علاج مرض واحد لم يكونوا سوى صناع فى بعض المهن الطبية.

الولادة:

ومن فروع التخصص، الولادة، وكانت تقوم عليها قابلات تلقين فنهن فى مدارس خاصة كمدرسة سايس، وقد مثلت الولادة فى كثير من المعابد في قاعات خاصة سميت بقاعات الولادة والطفولة، وصُوِّرت فيها الوالدة ساجدة، ووراءها ثلاث نساء، هن الإلهة (نيث) ومساعدة لها، ومتفرجة تحمل علامة الحياة (عنخ)، وأمامها القابلة تستقبل الطفل، والخادمة التي تتعهد المولود بالرعاية في طوره الأول.

وكانوا يعرفون أن الأصل هو المجيء بالرأس كما هو ظاهر من تلك الصور، ومن الحرف الهيروغليفي الدال على الولادة، وهو يمثل الحبلى ساجدة، والوليد خارجًا من تحتها برأسه وذراعيه، إلا أن هذا الرأس وهاتين الذرعين رأى فيهما آخرون بقايا حرف (مس) ومعناه الولادة.

وقد وردت عبارات تشير إلى جلوس الأم فى أثناء الولادة على القرميد (الطوب الأحمر) (وقعدت الوالدة على القرميد، أنظر لفافة تورينو)، كما أن محل الولادة في كتابتهم صور بعلامة الولادة وبحجرين للتخصيص. وروت التوراة أن فرعون أصدر في صدد قتل أولاد اليهود الأمر الآتي: (وانظروا إلى الحجرين. فإذا كان الطفل ذكرًا فاقتلوه) وكل هذا يشير إلى أن المرأة المصرية كانت تلد وهي راكعة على حجرين بينهما فراغ، وهو تركيب يشبه كرسي الولادة الحالي، على أنه لم يصل إلينا سوى كرسي واحد كشف فى الفرنة فى مقبرة (خيموزي) قال عنة البعض: إنه كرسي لقضاء الحاجة، وقال الآخرون: إنه إنما كان مخصصًا للولادة.

وروى بردي وستكار قصة امرأة وضعت ثلاثة توائم، وأوضح كيفية قطع الحبل السري وغسل الوليد.. وأضاف أن الأم عادت إلى شئون بيتها بعد أن ظلت تطهر نفسها أربعة عشر يوما. وكانت أم الوليد ترضعه فترة طويلة تصل إلى ثلاث سنوات، ولم تكن المرضعات المحترفات تستخدمن إلا لدى الأسر الثرية. وفي بردي إبريس عدة توصيات بملاحظة جودة اللبن عن طريق الشم وبعض القواعد التى يمكن التكهن بها على مصير الطفل..

هل سيعيش أو سيموت، ووصفات لعلاج اضطرابات التسنين وأمراض الأطفال.

وقد تناولت خمس من اللفافات المعروفة أمراض النساء، وهي تكاد تتشابه تشابهًا تامًا فيما جاء بها عن هذا الموضوع، مما يوحي بأنها كلها نقلت عن أصل واحد، وقد يكون الجزء الخامس من الموسوعة التي ذكرها كليمان الإسكندري. وكانوا يعتقدون فيه أن أعضاء الحوض عائمة في التجويف البطني متجولة فيه، فكان يتحتم على أطبائهم في حالة المرض إغراؤها على الرجوع إلى محلها بأن تقف المريضة ويبخر تحتها بشمع معطر. ومن المؤكد أن الزواج المبكر والولادات المتعددة في سن حديثة، وحدوث الولادة بمساعدة القابلات واستعمال المواد الكريهة، ومن المؤكد أن هذة ضاعفت عدد أمراض الحوض في مصر القديمة. ومن تلك الأمراض التي يبدو أنها كانت منتشرة، سقوط الرحم، وقد عالجوه بالتحاميل والتبخيرات المهبلية بالتربنتين أو الغائط المجفف أو بتمثال لـ (أبي منجل) مصنوع من الشمع، أو بحقن المهبل بعصير نباتات معينة. وكانوا – بلا مراء – يكشفون كشفا نسائيا كاملا على السيدات بما أنهم وصفوا التهاب الرحم وتوسع عنقه وعالجوه بأنواع من عصير بعض النبات. أما المرض الذي أسموه آكل الرحم (السرطان) فكان علاجه موضعيا.

وقد عزا المصريون إلى مرض الرحم أعراضا عدة مثل الآلام في أسفل البطن والرقبة والأذنين وأمراض العيون والنوبات العصبية. وحدد بردي كاهون ملازمة تشمل التهاب الرحم وآلام المفاصل والعينين، ولعل هذا

المرض هو السيلان الذي كثيرا ما يحدث التهابا موضعيا وروماتزما مفصليا والتهابا بالعينين.

وقد وجدت آلات تشبه القرن المجوف لعمل الحقن الشرجية والمهبلية، ومما يرجح أن هذا هو الغرض منها ما جاء بصدد إحداها: (يعمل معجون من العسل والزجاج المدقوق لإفراغ كل ما في داخل المرأة)، وقد ورد ذكر اسم تلك الآلة فى باب العلاج.

الصلع:

يقول هيرودوت إن الصلع كان منتشرا، وقد كان إمينوفيس الثالث وسيتي الأول ورمسيس الثاني أصلعين. وكانت الملكة نفرتاري تلبس شعرا مستعارا. وكانوا يعالجونه بزيت الخروع، ويستعمل لهذا الغرض إلى اليوم - مخلوطآ بأدهان فرس النيل والتمساح والقط والثعبان والتيس البري، وكذلك بمخالب الكلب وحافر الحمار ودم الثور وأحشاء الشيلان والأعضاء التناسلية للكلبة وقذارة الأظافر وغائط الذباب، ولنذكر أن ديوسقوريدس استعمل رأس الذباب لمثل هذا الغرض. ووصفوا (الثعلبة) وعالجوها بمراهم وبتعاويذ موجهة إلى الشمس، التي كثيرا ما صوَّرت على شكل شخص يمسك بشعر عدوه قبل أن يذبحه.

الزكام:

وصفت أعراضه وصفا دقيقا في التعويذة التالية: (انصرف يا ابن الزكام الذي يكسر العظام ويهشم الجمجمة وينخر المخ ويصب المرض فى

فتحات الرأس السبع) (دموع العينين، مخاط فتحتي الأنف، ألم في الأذنين، التهاب في الفم). وكان دواؤه لبن امرأة وضعت ذكرا وصمغ، الخ... ولا تزال نساؤنا تصفن لعلاجه اللبن واللبان والعسل والملطفات.

الأسنان:

ذكر لنا هيرودوت من بين من ذكرهم من الأخصائيين أخصائيي الأسنان، وكانوا على درجات مختلفة، فمنهم الطبيب العادي أمتال (من قورع عنخ) الذي جاء ذكره فى مصطبة (بي عنخ سخمت) طبيب فرعون، ونفريوتيس الذي ذكر في مصطبة (سيشات حتب) مما يدل على مركزهما الثانوي بالنسبة إلى صاحبي المقبرتين، ومنهم رئيس الأخصائيين مثل (حيزيرع) و(بسماتيك سنب).

ومع أن (التسويس) كان قليل الانتشار فإن (البيوريا) والخراجات كانت منتشرة لا سيما فى العصور القريبة، وقد ازداد هذا الانتشار بتقدم الحضارة وزيادة الترف حتى في الطبقات العليا كما هو ظاهر من جمجمة أمينوفيس الثالث، الذي قال عنه إليوت سميث على سبيل الدعابة . بعد أن استكشف غشاء من الطرامة حول أسنانه وخراجين تحتها: (لم يواجه فرعون في ترف طيبة دسائس الكهنة فحسب ولكنه كان ضحية لآلام أسنانه أيضا).

وفى حالة حدوث تسويس كان يحشون الأسنان بالعسل والصمغ وسلفات النحاس، وكانت الأسنان القلقة تربط بالأسنان المجاورة لها بخيط

من الذهب. وتدل جمجمة من الأسرة الثانية عشرة أن الخراجات كانت تصفى بوساطة تربانة صغيرة فى عظم الفك.

الرمد :

لا جديد تحت الشمس، لقد كانت أمراض العيون شديدة الانتشار كما هو شأنها اليوم. وكان عدد المكفوفين كبيرا، وكثيرا ما نجدهم ممثلين فى النقوش وهم يزاولون الغناء أو الموسيقى، وربما كان تدريبهم على مثل تلك الفنون نوعا من التأهيل المهني؛ ومن الأسماء التي أطلقوها على العميان وصفهم المكفوفين بأنهم يرون الظلام في وسط النهار. فلا غرابة إذن أن تجد مائة وصفة في لفافة إبرس، من بينها واحدة تنسب إلى آسيوي من ببلوس. وقد نقل بردي كارلزبرج بعض هذه الوصفات..

وكانوا يسمون الحدقة (الفتاة التي في داخل العين).. وهذه التسمية مثلها فى اللغة اللا تينية **(pupilla)** أي الفتاة القاصر، وفي اللغة الإسبانية **(Nina de los ogos)** وكانوا يحسبونها منبع الدموع.

ومن الأمراض التى وصفوها وعالجوها التهاب الجفون. عالجوه بنقط من الصبر والنحاس وورق السنط تقطر فى العين بواسطة ريشة نسر، ومنها مرض الشعرة. وكان يعالج بتعديل وضع الرمش أو بنتفه ثم يوضع مرهم مصنوع من دم البرص والخفاش وصفرة العصافير، والدمل (الشحاذ)، وانقلاب الجفن للخارج (وعلاجه المواد القابضة) والرمد الحبيبي، وكانوا يعالجونه بالجرانيت والنطرون الأحمر المحروق وكبريتات الرصاص، والصنفر وعلاجه بيض الرخم وحجر الصوان الأسود وغائط البجع والتمساح،

و(دهن العين) وهو في الأغلب الـ **(Pinguecula)** وتمدد الحدقة والعنبة، والدموع والسحابة (البياضة) التى أصيبت بها الملكة نفرتيتي آية الجمال. أما الكتراكتا فقد أسموها (صعود الماء إلى العينين) ونحن نسميها اليوم الماء الأبيض (كما أطلق عليه الإغريق والرومان اسم الماء الأبيض) وعلة هذة التسمية أن المصاب بهذا المرض ينظر وكأن سائلا يحول بينه وبين رؤية الأشياء.

وكان مرض الماء هذا يعالج ببعض المراهم والتعاويذ، ولم يقدر له أن يعالج بالجراحة في مصر إلا في القرن الثاني بعد الميلاد ، وكان ذلك في الإسكندرية حيث نقل (أنتيل) الطريقة الجديدة عن كريزيب القبرصي.

وجاء في لفاقتي إبرس ولندن ذكر مرض (غشوة الليل)، وكان يعالج بالسحر وبكبد البقر بعد تدخينه، وهذا العلاج ليس خياليا لأن الكبد يحوي كميات من فيتامين (أ) وهو أحسن علاج لهذه الحالة كما ورد في إبرس، علاج فقدان البصر بوضع ماء عين خنزير في الأذن وترتيل تعويذة فحواها أن العين تُستبدل بالعين.

الصحة العامة

ماذا لحق بمصر

يقول هيرودوت أنه – حين زار مصر فى القرن الخامس ق.م – أعجب بحالة المصريين الصحية، وأنه وجدهم أسلم الناس بدناً بعد الليبيين.. فكيف يمكن تقبل هذا الزعم مع الانحطاط الذي وصل إليه المستوى الصحي في القرن الثامن عشر؟..

كان هيرودوت قوي الملاحظة، ثاقب البصيرة. وقد دلت عدة دراسات حديثة على أنه كان صادقا وهو يدون ملاحظاته الشخصية عن البلاد التي زارها، غير مكتف بالاستماع إلى الأقاويل. فهل خدع مع ذلك بمظاهر زائفة؟ أم قاس على بلدتة هاليكار ناسوس في آسيا – حيث كانت الملاريا متفشية – مصر التي كان هذا المرض فيها أقل انتشارا؟ أم أن تدهورا في الصحة العامة حدث فى العصور التي تلت.. ولعلنا تجد تفسير ذلك في الكلمة التي قالها نابليون، (ليس لإدارة في بلد من البلاد أثر أقوى أعمق منه في مصر، فإذا طهرت القنوات.. وإذا طبقت لوائح توزيع المياه.. وصلت مياه الفيضان إلى مناطق سحيقة، وأدى ذلك إلى مضاعفة الإنتاج. إن الحكومة الفرنسية لا تملك سلطانا على المطر أو الثلج، ولكن الحكومة المصرية تسيطر بشكل مباشر وحاسم على مدى وصول مياه النيل إلى مناحي مصر المختلفة. ومن هنا التناقض بين ما حققه هذا البلد من ثراء

فى عهد البطالمة، وبين ما رزئ به من إفلاس عندما رزح تحت نير الحكم العثماني).

وقد أكد المؤرخون – اللاحقون بهيرودوت – العناية الفائقة التي نالتها الصحة الفردية والصحة العامة في مصر القديمة. قاد ديودوروس الصقلي عن أسلوب حياة المصريين: يبدو كأن منظمه كان طبيًباً رتبه وفقا لمقتضيات الصحة لا مشرعا وفق القوانين.

وكانت تلك العناية تتناول المصرى من مهده، فلقد كان الطفل يرضع لبن أمه أو مرضعته ثلاث سنوات، وكان يوصى بفحص اللبن لمعرفة صلاحيته بشم رائحته التي شبهت – إذا كان صالحا – برائحة الخروب. ثم كانت تبذل في سبيل صحته عناية قصوى تتبين جليا لمن يتصفح اللفائف إذ أنها مليئة بالوصفات الخاصة بتبوله وسعاله وزكامه.. الخ، أما التوعك الذي يصحب ظهور الأسنان فإنه كان يوصف له أحيانا دواء غريب، وهو أن تبتلع الأم أو الطفل فأرا مطهوا وأن توضع عظام هذا الحيوان حول الرقبة في قماش من الكتان عقدت فيه سبع عقد. وقد وجد إليوت سميث عظام فأر داخل الجهاز الهضمى لطفل فى نجع الدير، الأمر الذي يؤكد استعمال تلك الوصفة.

وقد تبع المصريون في ذلك ديوسقوريدس إذ أنه أشار بالوصفة نفسها لعلاج سيل اللعاب واضطرابات التسنين عند الأطفال. وبعده الإغريق والرومان والأقباط والعرب وأطباء القرنين الخامس عشر والسادس عشر

الميلاديين في إنجلترة حيث يوصف هذا الدواء إلى اليوم في بعض الأقاليم. أما عملية الختان فكانت تجرى في الطفولة (انظر باب الجراحة).

وكان الزواج يتم بمجرد البلوغ، مما جنب المراهقين الكبت الجنسي وما ينشأ عنه من عقد، وأسهم في وضع المجتمع على أسس عائلية صحيحة. وكان زواج الأخ من أخته، بل الوالد من ابنته، مقبولاً، بل ممعنا في القدم: ويروي التاريخ أن أوزيريس تزوج بأخته إيزيس وأن نفتيس اقترنت بأخيها سيت. وقد احتفظ الفراعنة بتلك العادة تقليدآ للآلهة وحرصا على صفاء سلالتهم. وهم - إما لعدم إدراكهم في أول أمرهم لدور الزوج في تكوين الجنين، إما بغية التأكد من صفاء انحدار السلالة لم يعترفوا بالوراثة إلا عن طريق الأم، فكان يتحتم على فرعون أن يكون من أم هي بنت فرعون، وبالتالي أن يتزوج أيضا من بنت فرعون حتى يكسب ابنه حق الجلوس على العرش، فإذا كان من أبناء فرعون من تزوج بأخته، وكان غريبا كحورم حب أو توت عنخ آمون الذى تزوج بابنة فرعون، وكان له بعد ذلك أن يتزوج من يشاء. ولذا تكثر فى ألقاب الملكات عبارتا (الزوجة الملكية والأخت الملكية) الخاصتان بالزوجة التي من سلالة فرعون. وكان لهذا الاهتمام بنقاء السلالة سبب سياسي ديني مهم، وهو أن فرعون كان سلطانآ بحكم انحداره من الشمس فكان يتحم عليه أن يحقق هذا .

وقد عاب الإغريق هذه العادة على المصريين زاعمين أنها تنافي أبسط القيم البشرية، ولا يزال الاعتقاد سائدا حتى الآن بأن هذة العادة تجمع

العوامل الوراثية الضارة فتعرض لظهور الأمراض الخلقية أو تضاعف من وطأتها فتضعف النسل.

ولكن روفر قال بعد دراسة مستفيضة إنه لا أثر لمثل هذا الانحلال فى الأسرة الثامنة عشرة، وهي التي أنجبت أكبر تسعة ملوك، ولا عند البطالمة، والحقيقة هي أن الزواج من الأخوات يبرز لونا من الانحراف الخلقي في السلالة نافعا كان أم ضارا.

وكان تعدد الزوجات مباحا.. وكان للرجل أن يقتني الجوارى.. غير أن الزواج بأكثر من زوجة كان محرما على الكهنة، فقد كانت الظروف الاقتصادية تحد من هذا التعدد بحيث اضطر أغلب المصريين إلى الاكتفاء بزوجة واحدة.

وقد جاء ذكر البغاء الرسمي الذي أنشىء تسهيلا لغير المتزوجين والجنود والمسافرين وإلى جانب هذا وجد عالم الراقصات والمغنيات اللاتي مثلن على التخوت وجاء ذكرهن في القصص، وفي نصائح لقمان، وفي نصائح الحكماء إلى الشباب (ومنهن كانت راقصات أمون اللاتي لم يكن نماذج للفضيلة وكن يترددن على المحلات المشبوهة). وقد رأى البعض في هذا دليلا على الاعترف ببغاء مقدس في المعابد (كالذي وجد في بابل وفي الهند) على أنه لم يعثر على أي أثر في المعابد أو المخطوطات يؤكد هذا.

الرياضة البدنية:

وكانوا يعرفون قيمة الألعاب الرياضية في تكوين الشباب ويهتمون بممارستها وعلى رأسهم فرعون الذي كانت الحرب أهم شواغله الأمر الذي اقتضى التدريب على ألعاب القوى منذ الطفولة استعدادا لها. وإنا لنقرأ رمسيس الثاني في شبابه مع زملائه، كانوا دائبي التمرين، وأنه لم يكن يصرح لهم بتناول أي طعام قبل أن يتسابقوا مسافة طويلة، وقد وردت تفاصيل عن تدريب الأمراء والفراعنة على جدران حجرتين: إحداهما لتحتمس الثالث والأخرى لابنه خبروع الذي خلفه على العرش باسم أمنمحوتب الثاني، والذي كان – حسبما ورد في تقرير الأطباء الذين تفحصوا مومياه – ذا قوة فذة، إذ قيل عنه إن ذراعه ثقيلة وإنه لم يعرف من بين جنوده أو مشايخ البلاد أو كبار (رتنو) من يقوى على شد قوسه.

وكان على المحارب أن يتدرب على التجديف والرماية والفروسية... قالت المتون عن الأمير خبررع: (..إنه كان صلب الذراع، وإذا ما أمسك بالمجداف وأدار دفة الزورق على رأس مائتي بحار، فهو لا يعرف التعب، بل لا يزال يعمل مجدافه الذي طوله عشرون ذراعا عندما تقترب المركب من مرساها بعد نصف أتور (مسافة)، بينما يكون التعب قد نال من البحارة كل منال" وقيل عنه فى الرماية:(... وشد ثلاثمائة قوس صلبة لامتحانها لتميز الصانع الغبي من الماهر. وبعد أن اختار لنفسه قوسا لا عيب فيها ولا يقدر غيره على ثنيها، دخل المرمى الشمالي على ركابه، مثل (مونتو) فى جبروته، فرأى به أربعة أهداف من نحاس آسية، سمك كل منها راحة يد،

ووضعت بحيث تفصل بين كل اثنين منها عشرون ذراعا، فأمسك بقوسه؛ وانتقى أربعا من النشاب، وأسرع نحو الأهداف وهو يرمي بالنشاب مثل (مونتو) فيخترق كل سهم الهدف ويسقط من خلفه، ثم يعالج التالي. وهذا مالم يقدر عليه أحد سوى الملك شديد البأس الذي نصره آمون).

هذة الرواية التي رويت أيضا عن أبيه (من خبر رع) تذكرنا بما رواه هوميروس في الأوديسة – بعد تحتمس بألف سنة – عن أوليسيوس بعدما عاد من مغامراته ولم يعرفه أهله إلا عندما شد قوسه التي لم يكن غيره يقوى عليها.

أما شغفهم بالفروسية فظاهر من رواية أخرى عن الأمير نفسه . قبل أن يقوم بأعمال (مونتو). فإنه برع في ترويض الخيل وعندما ترامت إلى أبيه (من خبر رع) الرهيب أخبار مهارته، سرّ لها وازدهى بها وأمر أن يُعطى أحسن الخيل التي في حظائرة ليدربها ويقويها، فجعل منها الأمير الشاب خيلا نادرة المثال لا تعرف للتعب معنى.

ومن الروايات الأخرى الدالة على ولعهم بالخيل أن رمسيس الثالث كان يتفحص خيله بنفسه يوميا، وأن (بيانكي) عندما فتح بلدة (خعونو) وقهر الأمير (نمارت) زار الحظائر ووجد خيلها في حالة هزال شديد نتيجة للحصار الطويل الذي فرضة على البلد، فحنق على عدوه وقال له (بقدر ثقتي بأني حي، وأن أنفي شامخ في الحياة وأني أحب رع أقول إن تجويعك الخيل أقسى على قلبي من أظلم عمل أتيت به.. أما تعلم أن الإله بسط ظله عليّ؟... لقد ولدت من بطن إلهي إن البذرة الإلهية فيّ).

ولم يقف الفراعنة عند هذا الحد؛ بل كانوا مولعين بالقنص فنجدهم يقطعون مسافات طويلة ليقتنصوا الوحوش التي اختفت إذا ذاك من وادي النيل. ونرى (من خبر رع) ذاته أنه يذهب إلى وادى الفرات، حيث يهاجمه قطيع من مائة وعشرين فيلا يتوجه أضخمهم نحوه فيعرض حياتة للخطر، ويكاد يفتك به لولا زميله أمنحتب الذي قطع خرطومه.. ولم يذكر (من خبر رع) هذا التفصيل في الرواية الرسمية التي أمر بنقشها على الحجر في (نباتا) مع أنه قال فيها: (رويت هذا دون كذب) ولم تكن تعرف الحقيقة لو لم يروها أمنحتب نفسه.

وكذلك نرى رمسيس الثالث في تصاوير مدينة حابو يصطاد الأسود بالسهام والرماح.. وهناك تصاوير أخرى تبين كيف كانوا يقتنصون الثيران الوحشية وغيرها من الوحوش كفرس النهر.. الخ ..

أما الجمهور فإن ألعابه لم تكن أقل تباينا. ونجد صورها في مقابر بني حسن (شرق المنيا) تغطي جدرانها، منها ألعاب الكرة، والمصارعة بمختلف حركاتها وسكناتها، وألعاب تذكرنا بما نسميه اليوم الرقص و(الجمباز) الإيقاعي، وتلك الصور جديرة بأن يدرسها المختصون ويقارنوها بالمصارعة الحديثة، فقد يكتشفون أن الكثير من الجديد مستمد من القديم، ثم لعلهم يجدون فيها جديدا ينفعهم. ومن الألعاب التى مارسوها: ألعاب سباق مختلفة، ومحاولة فريق شد فريق آخر لإلقائه على الأرض... الخ ..

أما الفتيات فكن يفضلن ألعاب المهارة على ألعاب القوى، كأن يتبادلن الكرات راكبات ظهور زميلاتهن، وكان ينبغي لكل شابة أن تجيد

الرقص. وكن يربطن في آخر ضفائرهن كرات ويمسكن المرآة بأيديهن، ويقفزن ويستدرن ويلتوين على تصفيق المتفرجين الإيقاعي، كل هذا كان من شأنه أن ينشيء جيلا من الشباب قويا شجاعا سريع الحركة مفتول العضلات نحيف الخصر، وذلك هو الشاب الذي أعجب العالم بشكله المصور على النقوش القديمة.

النظافة الشخصية:

لقد أعجب السياح الإغريقيون بمختلف مظاهر نظافة المصريين مثل عادة غسل أواني الشرب واستعمال الملينات والمقيئات، شهريا. ولا شك في أن للدين والكهنة فضلا كبيرا في تعليم الشعب النظافة. وبعد أن أشفق هيرودت على الكهنة من تفانيهم في النظافة قال: إنهم يجدون في مناصبهم بالضرورة ما يعوضهم عن هذه القيود.

ولم يعرف المصريون الصابون (اخترع فيما بعد) بل كانوا يستعملون في الغسيل الصودا أو الرماد أو النطرون، وهي مواد لا بأس بها حيث أنها تذيب الدهنيات. وكانوا يدهنون البشرة بالزيوت والروائح لصيانتها، وبزيت الحلبة للتخلص من شوائب الشيخوخة. وكانوا جميعا – رجالاً ونساءً – يتخلصون مما ينمو في أجسامهم من شعر إما بالنتف أو بالحلاقة. .أما الكهنة فكانوا يحلقون شعر رءوسهم ووجوههم ويلبسون الشعر المستعار واللحى الصناعية.

ومن الأدهان التي كانت تستعمل لمنع شيب الشعر دم الثيران السوداء الصغيرة ودهن الثعابين السوداء ورحم القط وبيض الغراب،

لشفاء الصلع: دهن الأسد وفرس البحر والتمساح والقط وشوك القنفذ المحروق وقدم الكلب وحافر الحمار. ويلاحظ أن استعمال أدهان الحيوانات السوداء لإعادة لون الشعر، وكذلك دهن الأسد وفرس البحر اللذين يتمتعان بلبدة غزيرة لإعادة الشعر إلى الصُلع - مبنيان على القياس، ومع ذلك فليس من شك في أن نتائج علاجاتنا الحالية لا تفوق ما كانت تؤديها تلك العلاجات التي نهزأ بها .

كانوا يعتنون برائحة لبسهم وأجسامهم وأفواههم، فكانوا يبخرون ثيابهم بمثل هذه التبخيرة التي وردت في لفافة إبرس: لبان جاف، بذر الصنوبر، صمغ التربنت، قرفة، بذر الشمام، غاب فينيقية، وهذه كلها تصحن وتوضع علي النار. وكان هذا المزيج يخلط بالعسل وتركب منه أقراص للاستحلاب فى الفم، أو يوضع على حجر ساخن لتبخير المنازل.

ومن الوصفات التى كانت تستعمل للتخلص من البراغيث والذباب والبعوض والسحالي والثعابين مزيج من النطرون والفحم ونبات قوي الرائحة اسمه (ببت) يرش به المنزل. وكان هذا ولا شك علاجاً ناجعا للتخلص من تللك الآفات.

وهناك وصفات أخرى لصيانة المنازل تبدو لنا عجيبة، منها استعمال شحم القطط لإبعاد الفيران، وما نشك في أن هذه الفكرة مردها إلي أن الفئران لخشيتها القطط تنفر من شحمها ولو كانت ميتة، ومنها وضع حيوان (سمر) على النار حتى يموت لقتل السحالي، وبالعكس قتل السحالي بالنار للتخلص من الحيوان الذي يسمى (سمر)، الأمر الذي يفرض تجاوباً

خفيا بين الحيوانين: ومنها كذلك إدخال سمكة (بلطية) مجففة في جحور الثعابين لمنعها من الخروج.. وقد وردت كل هذه الوصفات في لفافة إبرس، ولا أصل لها من الوجهة الواقعية.

داخل المنازل:

استطرد هيرودوت في عجبه من المصريين فقال أيضا: "إن المصريين يختلفون في عاداتهم عن الشعوب الأخرى... فهم يتناولون طعامهم خارج مساكنهم بينما يقضون حاجتهم داخلها.. وليس من شك في أن هذا القول يدل على وجود مراحيض داخل المنازل.

ومما يؤكد هذا استكشاف نماذج مصغرة كانت توضع مع ملحقاتها في القبور ليعمرها المتوفون بعد وفاتهم، فقد وجد في بعضها مراحيض مكونة من مربعين منحرفين قاعدتاهما إلى أعلى وبينهما وعاء ممتلىء إلى نصف بالرمل. وشكل هذا المرحاض لا يختلف عما وجد عليه طوال الحضارة المصرية.

وقد ذكرت رواية ترجع إلى عهد المملكة الوسطى، وجود حمام في بيت أحد الأمراء الذين عاصروا سنوسرت، ولكن لم يعثر على أي أثر لحمامات أو مراحيض في أول مدينة مصرية قديمة كشفت كاملة وهي كاهول (اللاهون) التي بناها في الفيوم سنوسرت (١٩٠٦-١٨٨٧ق.م(

أما المملكة الجديدة فإننا نجد في بيوت مدينة تل العمارنة (أختاتن، ومعناها "أفق قرص الشمس") تحيناً بيناً في الجهاز الصحي، ويرجع الفضل

في ذلك إلى مؤسس هذه المدينة "إخناتون" الفرعون المجدد في الفن والدين والفلسفة الذي امتاز بالحساسية المرهفة.. وقد كشف فيها بورخارت أربعة أنواع من المراحيض. ووجدت أيضا مقاعد مفتوحة من أعلى قيل عنها إنها مراحيض قابلة للنقل.

ومن العصر نفسه وجدت أمثلة لعدة حمامات، إلا أنها كلها مبنية لصب الماء من أعلى فوق الرأس، لا للانغماس في حوضها كما كان يفعل الإغريق. ولا شك في أن الطريقة الأولى أصح من الثانية. وكانت جدرانها في منازل الطبقات الفنية تغطى بالحجر أو الخزف. وكانت تزود في أسفلها بخزانات ينساب إليها الماء الملوث.. بلغت ذروة الترف في عهد رمسيس الثالث الذي بنى معبد مدينة هابو، ثم هدمه وشيَّد على أنقاضه معبداً آخر مزودا بعدد كبير من الحمَّامات ليستخدمها هو وحريمه.

واظهرت حفريات بورخارت فى معبد ساحورع (الأسرة الخامسة) ٢٧٠٠ ق. م . سقارة . أحواضا من الحجر المبطن بالمعدن، في كل حجرة وفي كل ممر. وفي أسفل كل حوض منها فتحة تسدها سدادة من المعدن مربوطة بسلسة. وتتصل فتحات الأحواض بشبكة من الأنابيب الجوفية طولها مجتمعة (أربعمائة متر) مصنوعة من صفائح النحاس المطروقية والمطوية على شكل أسطواني مراعى فيها تراكب الأطراف ووضع الشفتين إلى أعلى، وتنتهي الشبكة إلى الوادي. ولكن هذا النظام يبدو فريدا. وهو على حال لم يعمم فيما بعد، فإن مياه الانسياب من المساكن كانت

تتسرب فى مجار مفتوحة في وسط الشوارع، كما كانت الحال في أوروبا إلى عهد قريب، وكانت أحيانا تجمع في أوعية خارج المنازل.

أما عهد البطالمة، فإنه ينتسب إلى حضارة الإغريق أكثر من انتسابه إلى الفراعنة، وقد عم فيه استعمال المراحيض وانتشار الحمامات العامة المزودة بالماء الساخن والبخار حتى وصل عددها في الإسكندرية وحدها عند فتح العرب إلى ٤٠٠٠.

الدفن والتحنيط

الدفن

حتمت العقائد الدينية السائدة بين المصريين القدماء في عهد الأسر حفظ جسد الميت وصيانته وإبقاءه على شكله قبل الوفاة، حتى يتسنى للروح (با) أن تتردد عليه في قبره، وأن تعود إلى الحياه الحسية..

وأقدم وسيلة للدفن – في العصر الحجري الحديث – لم تزد على وضع الجثة في الأرض، ولم يعثر على جثث أو قبور مبنية ترجع إلى هذا العصر. وطبيعة مناخ مصر هي التى أوحت بهذة الوسيلة، فالجو حار، وإذا دفنت الجثة في طبقة رعل ذي مسام أعلى من منسوب المياة الجوفية، جفت وتطهرت من الميكروبات. ثم إنها إن ظلت على جفافها قدر لها أن تبقى إلى الأبد، لا يصيبها التحلل، ولا يدركها البلى. ومن هنا فقد اكتفى في أول الأمر – قبل عهد الأسر – بمواراة الجثة التراب: إما عارية، وإما محاطة بجلد حيوان أو بكفن رخو .

وفي عهد الأسر دفنت جثث الملوك والأغنياء في مقابر عميقة بطنت جدرانها بالخشب أو الطين المجفف... وتغير الكفن فأصبح مكونا من مجموعة من الأربطة المحكمة، وأخذ كل من المقبرة والكفن يتطور إلى أن وصلت أساليب الدفن إلى ذروة الكمال والتعقيد فى عهد توت عنخ آمون

الذي حُنطت جثته ثم لفت بست عشرة طبقة من الأربطة المصنوعة من الكتان ووضعت في صندوق محفوظ في صندوقين آخرين وتابوت من الحجر وأربعة هياكل. ولم يكن بد من أن يؤدي هذا التطور في طرق التكفين فضلا عما وصلت إليه المقابر من السعة والعمق وإلى تأخير جفاف الجثة.. ومن ثم إلى احتمال تعفنها وإلى ضرورة ابتكار حيل جديدة لضمان صيانة الجثة.. ومن هنا نشأت وسائل التحنيط.

التحنيط

ليس في الاستطاعة تحديد الوقت الذي بدأ فية قدماء المصريين تحنيط موتاهم، وأول مثال لهذا عثر عليه في مقبرة الملكة (حوتب ـ حرس) والدة خوفو وظلت عادة التحنيط متبعة في مصر منذ ذلك العهد النائي حتى بداية العهد المسيحي، إلا بعد وقت طويل.

وكانت أساليب حفظ الجثث في البداية بسيطة، ثم تطورت وتعقدت فصارت الأحشاء تنتزع من الجثة وتحفظ في أوعية خاصة (وهي التى أطلق عليها (الآواني الكانوبية).. وما فتئت هذة الأساليب تتطور وتتطور، حتى بلغت أعلى درجات الكمال في عهد الآسرة الثامنة عشرة، ومما يؤسف له أنه لم يرد ذكر الطرق التي كانت متبعة في أي مؤلف معاصر، اللهم إلا في لفافة أبيس التي ترجع إلى الأسرة السادسة والعشرين (أي القرنين السابع والسادس قبل الميلاد) والتي تصف تحنيط عجل أبيس.. وفي وثيقة أخرى ـ ترجع إلى العهد الوسيط الأول أو الثانى ـ أشير إلى فن التحنيط السري. ولقد وصف هيرودوت في القرن الخامس ق.م، وتلاه في ذلك ديودورس في

القرن الأول الميلادي طقوس التحنيط بشيء من التفصيل، الأمر الذي ساعد العلماء في مهمتهم عندما عمدوا إلى فحص الجثث ودراسة محتوياتها ومحاولة الوقوف على المواد التي استعملت في هذه العملية الدقيقة، وإذا كانت طرق التحنيط قد اختلفت على مر العصور، فى خلال تاريخ مصر الطويل، كما يتضح ذلك من جثث العهود المتعاقبة، فإن هناك . مع ذلك . طريقة مثالية يمكن أن توصف على الوجه التالي:

أولا: تفرغ الجمجمة من المخ بوساط (سيخ) طرفه ملتو كالشص (السنارة) يدخل في الأنف، وتثقب به قاعدة الجمجمة، ثم يهرس بها المخ بحيث يصبح كالعجينة ويمكن سحبه عن الطريق نفسه أي عن طريق الأنف. ويبدو أن هذه الخطوة لم يبدأ في استعمالها إلا منذ عهد الأسرة الثانية عشرة. وكان تجويف الجمجمة يترك بعد ذلك فارغا، أو يملأ بالصمغ أو بخليط من الصمغ والشاش. أما عهد البطالمة فكان يستعاض عن المواد بقطران الخشب .

ثانيا: تفتح البطن من الجانب بسكين من حجر الشست، وتنزع أحشاء البطن والصدر ما عدا الكليتين والقلب، ثم يترك هذان التجويفان فارغين، أو يملآن أحياناً على الوجه الذي كانت تحشى به الجمجمة. وفي العهود المتأخرة كانت الأحشاء تعاد إلى البطن بعد لفها. وقد وجدت بعض مومياوات آشخاص لا يمكن القول بأن ذويها ضنوا بالمال في سبيل تحنيطها . تحتوي على كل أحشائها، كما عثر على مومياوات أخرى ببلاد النوبة خاوية البطن ولا يظهر عليها أي أثر لفتح أُجري فيها.

ثالثآ: تحاك فتحة البطن. وكان ذلك في حالات قليلة، أما في معظم الحالات فكانت تغلق بصب الصمغ المصهور عليها. كما أنه كان يوضع شمع النحل في الأذنين والعينين والأنف والفم، وكذلك على فتحة البطن.

رابعا: كانت الأحشاء تنظف في نبيذ النخل والعقاقير العطرية، ثم تحشى بالمر والأنيسون والبصل، وتوضع بعد ذلك الأواني الكانوبية، أو تعاد – فى حالات نادرة – إلى البطن .

خامسا: التجفيف، وهو العميلة الأساسية للتحنيط التي تكفل للجثة البقاء وعدم التحلل. ولقد ظن البعض أن المصريين كانوا يخفون الجثث بوساطة الحرارة أو الجير الحي، إلا أننا نستبعد هذه الطرق نظرا لافتقارنا إلى أدلة ثابتة في هذا الصدد.

وقد استعمل النطرون للتجفيف وعثر عليه بكثرة في أوان عديدة، وفي مخلفات التحنيط، وفي الأواني الكانوبية، وفي القبور، وداخل تجويف بعض المومياوات، وفي أنسجتها، وضمن المواد الدهنية المستخلصة منها، وكذلك في الصموغ وغيرها مما تحشى بها الأحشاء، وعلى أربطة التيل. وهذا فضلا عن أنه وجدت رواسب منه على بعض الآلات والأسرَّة والمناضد التي استخدمت في التحنيط .

ويروي هيرودوت أن الجثة كانت في النطرون سبعين يوما، وقد ظن في بادىء الأمر أنها كانت تغمس في محلول منه، إلا أن المرجح . حسب التجارب التي أجراها لوكاس على الطيور . أنها كانت توضع في نطرون

جاف، إذ أن الملح العادي يُحدث فيها تآكلا سريعا. وأن فعل المحاليل مؤقت وسرعان ما تصاب الجثة بالتحلل بعد إخراجها منها ..

سادسا: وبعد أن يتم تجفيف الجثة، كانت تنزع من النطرون الجاف ثم تغسل بمحلول منه، وتدهن بالزيوت العطرية، وكثيرا ما كانت تدهن الأصابع بالحنة وتُملأ التجاويف الناجمة عن التحلل في العضلات أو الأعضاء في أثناء التجفيف بالكتان والرمل ونشارة الخشب، وتدهن الجثة بالصمغ .

سابعا: بقيت مرحلة التغليف...كانت الجثة تلف بلفافات من الكتان المشبع بالأصماغ.

وكانت هذه الطريقة الباهضة النفقات تتبع لتحنيط جثث الأثرياء.. أما عن جثث الطبقات المتوسطة فإن هيرودوت يروي أن المحنطين كانوا يكتفون – للتقليل من النفقات – بحقن الجثة من الشرج بزيت أشجار الأرز وبإغلاق الفتحة المترتبة على هذا الحقن بالخياطة طوال فترة التجفيف بالنطرون، فإذا ما انقضت هذه الفترة فتح الشرج من جديد حاملا معه ما أذابه أو فتته من الأحشاء والفضلات، إلى حد أنه كثيرا ما كان لا يبقى من الجثة سوى العظام والجلد. وهذه الطريقة هي التي جاءنا وصفها في لفافة أبيس الآنفة الذكر.

وفيما يتصل بجثث الفقراء كان يستعاض عن زيت أشجار الأرز – في تحنيطها – بزيت بذور الفجل. وقد قال بلينوس إن استخدام هذا الزيت في هذا المضمار سبب غلاء الفجل في ذلك الوقت.

حكم التاريخ

وفي الختام يجدر بنا أن نزن قيمة الحكم الذي نصدره على طب قدماء المصريين، فإن الأصول التي يصح أن نعتمد عليها في هذا الحكم لا تربو على ثماني ورقات مصنفة من أصول مهلهلة وصلت إلى ناقليها ناقصة مشوهة، استنسخها أولئك على علاتها.

ولا يحق لنا أن نكون كمن يصف مجرى النيل نقلا عن مشاهدات سطحية لسائح وسط مجراه، مع جهلنا بمنابعه من ثلوج أواسط أفريقية وبحيراتها، ومنبعه الجائر فى أوجاندا، وما التقى به من روافد في السودان والحبشة، وما خسره بالتبخر في مستنقعات منطقة السدود، ثم ما حبا به واديه من نعم لا حصر لها.

ثم، هل كان هذا المزيج الغريب من الطب والشعوذة مجرد خلط من نساخين وضعوا جنبا إلى جنب علما تجريبيا منطقيا موجها إلى علماء من الأطباء كالذي جاء في لفافة إدوين سميث . ودجلا وسحرا موجهين إلى جمهور ساذج لم يفتأ منذ القدم يرتاح إلى هذا الضرب من الطب، كالذي في لفافة لندن. أم أن الطب كان يمارس حقا على النحو الذي يبدو في لفافة إيبرس؟

لا شك أن المستقبل سوف يكتشف عن أسرار لا تزال كامنة في أرض مصر الطيبة الضنينة، أسرار تتناول أصول الطب المصري والحضارة المصرية، وكيان مدارس الطب (بيوت الحياة) ووسائل التعليم فيها، وعلاقة طب مصر بطب البلاد المجاورة والحضارات التي قد تكون سبقتها، وانتقال العلوم الطبية من مصر إلى اليونان، وضخامة الدين الذي على الإغريق لأساتذهم المصريين. نعم لم يعد مجال للشك في أن هذا الدين بالغ العظم، وقد أشرنا إلى بعض ما اقتبسه أبقراط وغيره من مصر، إلا أن الكتاب الغربيين لقلة معلوماتهم عن مصر، ولصعوبة الوصول إليها، مع سعة دراساتهم للحضارة الإغريقية جعلوا من تلك الأخيرة أساسا لما وصلوا إليه من مدنية، جاهلين أو متجاهلين أصول الحقيقة للكنوز التي خلفها اليونان للعالم بعد ذلك.

ولذا فإن المصريين يستحقون إعجاب الجميع وتقديرهم، وفي ذمة العالم أن يعترف بفضلهم عليه، ذلك لأنهم – مع التحفظات التي أبديناها – كانوا أول من حاول التخلص من القيود التي ربط بها السحرة والكهنة الفكر البشري، وأيا كان حكمنا على درجة نجاحهم في تلك المحاولة فإن مجهودهم هذا مهد السبيل لمن تبعهم، من إغريق أو غيرهم، نحو التحرر والمعرفة.

الفهرس